حوليات آداب عين شمس المجلد 52 (عدد يوليو – سبتمبر 2024)
http://www.aafu.journals.ekb.eg
(دورية علمية محكمة)
جامعة عين شمس
كلية الآداب

البثّ والشكوى فى شعر امرئ القيس دراسة نفسية تحليلية

شمس الاسلام احمد حالو*

أستاذ مشارك الأدب العربى القديم / الجامعة القاسمية / الامارات العربية المتحدة
Chalou@alqasimia.ac.ae

تاريخ الاستلام: 2024/07/21
تاريخ قبول البحث: 2024/07/28
تاريخ النشر: 2024/09/30

المستخلص:

يهدف هذا البحث إلى دراسة بواعث شعر البثّ والشكوى عند امرئ القيس وأهم اتجاهاته، وتوضيح أبرز المعاني والمضامين التي كشف عنها هذا الشعر عند الشاعر، والانعكاسات النفسية له، وأهم الانفعالات والمشاعر التي تجلّت من خلاله.

ولتحقيق أهداف البحث جاءت الدراسة في قسمين: القسم الأول مخصص للمادة النظرية؛ ويتضمن تحديد مفهوم البثّ والشكوى، ثم توضيح بواعثهما في شعر امرئ القيس. وأمّا القسم الثاني فقد جاء للحديث عن اتجاهات البثّ والشكوى في شعر امرئ القيس وتحليل النصوص الشعرية المتعلقة بها لكشف معاناة الشاعر والأزمات التي أحاطت به، وكيف عبَّر عنها وكشف عن عمقها في نفسه ووجدانه، ثم وضَّح البحث الانعكاسات النفسية لشعر الشكوى عند الشاعر وأهم المشاعر والانفعالات التي ظهرت من خلاله.

وخلص البحث إلى أنّ الشكوى عند امرئ القيس كانت بشكل عام إمّا نتيجة معاناة نفسية عاناها الشاعر بسبب ظروف قاهرة مرَّت عليه، أو مرض جسدي شديد ألمَّ به، وقد تآزرت أبياته لتشمل الأمرين معًا، وكان لموضوع الشكوى في شعره انعكاسات نفسية ظهرت في سيطرة مشاعر الحزن والقلق، والإحساس بالضعف والانكسار، واليأس وفقدان الأمل، والعيش في ذكريات الماضي، والنزعة الإنسانية التي بدت في شعور الشاعر بمعاناة الإنسان عامّة.

وهكذا كان هذا الشعر مرآة صادقة عكست معاناة الشاعر وبيّنت الأزمات والشدائد التي أحاطت به خلال مراحل حياته المختلفة ودعته للبثّ والشكوى والبوح في هذه الأشعار، فحفظت جانبًا مهمًا من حياة هذا الشاعر المشهور، وقد تجلّت في هذا الشعر المشاعر الإنسانية الصادقة والانفعالات الحقيقية التي جعلته يخرج من إطار الذاتية الفردية إلى التعبير عن القلق الوجودي والوجدان الإنساني بشكل عام.

الكلمات الدالة: امرؤ القيس، شعر، البثّ، الشكوى.

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لحولية كلية الآداب – جامعة عين شمس 2024.

المقدّمة:

الأدب فن رحب كرحابة الحياة الإنسانية، متسع كاتساعها، من خلاله نتعرّف إلى وجوهها المختلفة، ومنه نستشف صورها وأدقّ تفاصيلها وأسرارها، وقد كان الأدب الجاهلي وعاء لكل ما عانته نفس الشاعر الجاهلي، ولكل ما اضطرم داخلها من مشاعر وأحاسيس ما بين حبٍّ وكراهية، واطمئنان وقلق، وإقدام وإحجام، وحزن وسرور، ويأس وأمل، إلى غير ذلك من المشاعر الإنسانية المتنوعة.

والشاعر عادة ما يحمل نفسًا حساسة لا تكتفي بالمشاهدات والنظرات العابرة، فكثيرة تلك الأمور التي تحفر في وجدانه عميقًا، وتترك أثرًا في نفسه المرهفة، وتحفزه لينطلق بالتعبير بشعره عما يجيش في زوايا نفسه ودواخلها.

فكيف إذا كثرت هموم الحياة، وأناخت بكلكلها على الشاعر، ونغَّصت عيشه، وجعلت ليله نهارًا، لا يعرف فيه هدوءًا، ولا تقرُّ له فيه عينٌ كامرئ القيس الذي انقلبت حياته بغتة بمقتل أبيه، وتحوّل مسارها تحولًا مفاجئًا صادمًا، أيقظه على واقع جديد قاس كان لا بد من مواجهته، وركوب عبابه المضطرب، وكان لا بد للشاعر مع هذا الواقع المرّ من بثٍّ آهاته وقلقه وحزنه وشكواه في شعره الذي حفظ وجوه تلك الحياة المضطربة، والمشاعر والأحاسيس المرافقة لها، وتلك المعاناة وذلك الصراع والقلق.

فجاء هذا البحث ليقف عند البثِّ والشكوى في شعر امرئ القيس، مستقصيًا وجوه البث والشكوى عنده، محاولًا تحليلها تحليلًا نفسيًا يكشف عن معاناة الشاعر ومشاعره العميقة، وتأثير ظروف حياته وانقلاباتها في نفسه ووجدانه وانعكاسها في شعره.

ومما لا شك فيه أنَّ الشكوى حالة ضرورية يلجأ إليها الإنسان للتخفيف عن نفسه من جانب ولفت انتباه الآخرين إليه لمساعدته والوقوف إلى جانبه من جانب آخر، وإن كان البشر يتفاوتون بها كثرةً وقلةً، عمقًا وضحالةً، لكن لا تكاد تخلو منها حياة إنسان مهما بلغ من الشدّة والصلابة، فموضوع الشكوى موضوع إنساني عام، لا ينفرد فيه إنسان دون آخر.

وإن كانت بعض الدراسات قد وقفت عند الشكوى في الشعر الجاهلي عامَّة، وذكرت بين تلك الأشعار بعض أشعار امرئ القيس، ولا سيما أبياته المشهورة في وصف الليل وطوله وهمومه ومعاناته فيه، إلا أن الباحث لم يجد فيما استقصاه بحثًا مفردًا مستقلًا يقف عند البثِّ والشكوى في شعر امرئ القيس خاصة ويتناول اتجاهات الشكوى عنده بالتفصيل، ويحلل تلك الأشعار تحليلًا نفسيًّا، ويوضِّح انعكاساتها النفسية في شعره.

وهذا لا ينفي أثر تلك الأبحاث في الكشف عن بعض وجوه الشكوى عند الشاعر، وأهميتها والجهد المبذول فيها.

مشكلة الدراسة:

وضع الباحث على عاتقه الإجابة على التساؤلات الآتية: ما بواعث البثِّ والشكوى عند امرئ القيس؟ وما اتجاهاتها في شعره؟ وما أبرز المعاني والمضامين التي كشفها شعر البثّ والشكوى عند امرئ القيس؟ وما الانعكاسات النفسية لهذا الشعر عند الشاعر؟

أهمية الدراسة:

تأتي أهمية هذه الدراسة **أولا** من أهمية الشاعر الذي نتحدث عنه، فامرؤ القيس أحد أهمّ وأقدم شعراء العصر الجاهلي، وقد عدّه القدماء أول من فتح أبواب الشعر ونوّع أغراضه، وسبق إلى بكاء المنازل والديار(ابن منقذ، 1965،

ص60) فقال الأعلم الشنتمري: "امرؤ القيس أسبق شعراء العربية إلى ابتداع المعاني والتعبير عنها، افتتح أبوابًا من الشعر، ووفّق إلى تشبيهات، وطرق موضوعات لم يسبق إليها، ففتح باب الغزل، وأطال الوصف، وأمعن فيه، وأبدع تصويره، هذا إلى لفظ جزل موجز، وسبك محكم، يتخلّله مَثَل مرسل، وحكمة بالغة، وكان شعره مرآة صادقة لحياته، وتاريخ قومه" (الشنتمري، 1954، ص19) وذكرت كتب الأدب أنه كان أشعر العرب في وصف الخيل، فقالوا: " أشعر العرب امرؤ القيس إذا ركب" (أبو هلال العسكري،1952، ص23)، وهو أحد شعراء المعلقات السبع المشهورات، وفي طليعة شعراء الطبقة الأولى عند ابن سلام في العصر الجاهلي (ابن سلام الجمحي، د.ت، 51/1).

وتكمن أهمية الدراسة **ثانيًا** من موضوع البثّ والشكوى في شعره، فقد مرَّ عليه أكثر الدراسين للشعر الجاهلي مرورًا سريعًا ضمن الموضوعات الشعرية الأخرى، ولم يلقَ نصيبه من الدراسة والتحليل كغيره من الأغراض الشعرية، ولم تُخصَّص له دراسة تستقصي اتجاهاته وتقف عند أهم معانيه ومضامينه، وتداعياته النفسية.

منهج الدراسة:

يستدعي موضوع البثّ والشكوى في شعر امرئ القيس الاستئناس بمناهج عدَّة، أهمّها المنهج النفسي في تحليل النصوص الشعرية، والمنهج الوصفي والتاريخي في عرض المادة النظرية للبحث، والمنهج الاستقصائي في جمع مادة الدراسة، وذلك لقصور منهج واحد عن تحقيق أهداف البحث والإجابة عن تساؤلاته.

وقد خصَّصت القسم الأول من البحث للمادة النظرية؛ وذلك بتحديد مفهوم البثّ والشكوى، ثم بواعث البث والشكوى في شعر امرئ القيس، أما القسم الثاني فقد خصَّصته للحديث عن اتجاهات البثّ والشكوى في شعر امرئ القيس وتحليل النصوص الشعرية المتعلقة بها لكشف معاناة الشاعر والأزمات التي أحاطت به، وكيف عبَّر عنها وكشف عن عمقها في نفسه ووجدانه، ثم وضَّح البحث الانعكاسات النفسية لشعر الشكوى وأهمّ المشاعر والانفعالات التي تجلّت من خلاله.

أولًا- البثّ والشكوى في اللغة والاصطلاح:

1 البثّ: قال الجوهري في معنى البثّ "بَثَّ الخبرَ وأبَثَّهُ بمعنىً، أي نشره. يقال: أبْثَثْتُكَ سِرِّي، أي أظهرته لك. وبَثَّثَ الخبرَ، شُدِّدَ للمبالغة، فانْبَثَّ أي انتشر... وقال الأصمعي: تمرٌ بثٌّ، إذا كان منثوراً متفرِّقاً بعضه من بعض. والبَثُّ: الحالُ والحُزْنُ." (الجوهري، 1987) وقال ابن فارس "بثَّ: يقال: بثثتُ السِّرَّ وأبثثتُهُ. وبثثتُ الغبار: هيجتُهُ، والبثُّ: الحالُ" (ابن فارس، 1986، ص 110) وقال الأزهري: "البثُّ: الحُزْن الَّذِي تُفْضِي بِهِ إِلى صَاحبك. يُقال: أَبْثَثْت فلَانًا سِرِّي، بالْألف، إِبْثَاثاً، أي أَطْلَعْتُه عَلَيْهِ" (الأزهري، 2002، 51/15).

فالمعنى الحسي للكلمة يدلُّ على نثر الشيء ونشره وتفريقه وتهييجه كالغبار والتمر، ومن هذه المعاني جاء بثُّ الخبر والسِّر والحزن أي إشاعته ونشره. ذكر الحميدي ذلك فقال: "بَث الشَّيءَ يبثُّ بثًّا إذا فرَّق وَيُقَال للشَّيء المتفرِّق بَث وَقيل للبثِّ الَّذِي هُوَ الْحزن بثًّا؛ لِأَنَّك تبثّه النَّاس وتعرِّفهم وتفشيه فيهم وتفرِّق ذكرَه في فرقهم" (الحميدي، 1995، ص230) وقال النيسابوري: "ويقال: بثثتُه سِرِّي أبثثُه، إذا أطلعته عليه؛ لأنك فرَّقت بين سرّك وبينك، ويقال للحزن: بَثٌّ؛ لأنَّ صاحبَه لا يصبر عليه حتَّى يظهره" (النيسابوري، 1430، 3\458)

ووضَّح العسكري الفرق بين الحزن والبثّ، فقال " قيل: البثُّ أشدُّ الحزن، الذي لا يصبر عليه صاحبه، حتى يبثّه أو يشكوه. والحزن: أشدُّ الهمِّ. وقيل: البثُّ: ما أبداه الإنسان، والحزن: ما أخفاه؛ لأنَّ الحزن مستكن في القلب، والبثُّ: ما بثَّ وأظهر، وكلّ شيء فرقته فقد بثثته. ومنه قوله تعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾ (البقرة: 164) فالبثُّ غير الحزن. وقيل: هما بمعنى، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ (يوسف: 86) من عطف الشيء على رديفه" (العسكري، د.ت، ص267) وقال أبو حيان الأندلسي: "البثُّ: أشدُّ الحزن، لا يصبر عليه صاحبُه حتَّى يبثّه، أي: يشكوه" (أبو حيان الأندلسي، 1983، ص62)

وقال الحميري في بيان ذلك أيضًا: "وقيل: البثُّ: ما أبداه، والحزن: ما أخفاه؛ لأنَّ الحزن مستكنّ في القلب، والبَثُّ: ما بُثَّ وأظهر. والبثّ: غير الحزن، لقوله بَثِّي وَحُزْنِي. وقيل: معناهما واحد وإن اختلف اللفظ" (الحميري، 1999، 384/1)

وقال ابن منظور: "والبَثُّ: الحُزْنُ والغَمُّ الَّذِي تُفْضِي بِهِ إلى صَاحِبِكَ...البَثُّ فِي الأصل شدَّة الحُزْن وَفِي حَدِيثِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ: فَلَمَّا تَوَجَّه قافِلًا مِنْ تبوكَ حَضَرني بَثِّي أي اشْتَدَّ حُزْني" (ابن منظور، 1414، بثث)

وجاءت الكلمة في شعر ابن العبد:

لعَمْري، لموْتٌ لا عقُوبَة، بَعْدَهُ لذي البثِّ أشْفى من هوىً لا يزَايلُه

فذو البثّ هنا صاحب الشكوى. (طرفة، 2002، ص65).

وهكذا يمكننا تحديد مفهوم البثّ بأنّه الحزن والغمّ الذي لا يصبر عليه صاحبه ولا يستطيع كتمانه فيظهره ويشكوه ويفضي به إلى أصحابه ليخفف عن نفسه ما تحمَّله منه.

2 الشكوى:

لمادة (شكا) معان ودلالات متعدّدة وقفت عليها المعجمات العربية، بعضها حسيٌّ، قال الأزهري: "يُقَال: شَكَى الرَّاعِي وتَشَكَّى إذا اتّخَذَ الشَّكْوَةَ" (الأزهري،2001، 165/10) والشَّكْوة: سقاء صغير يعْمل من مَسْكِ حَمَلٍ صَغِير يكون لِلبن وَالْمَاء، والحَمَلُ الصَّغِير يُسَمَّى الشَّكْوة. (ابن سيده، 1996، 5/3) وأما الشَّكْوى والاشْتِكاءُ فيقال في" المَوْجِدَة من المَرَض. وشَكا فلانٌ فلانَاً، فأشْكَيْتَه منه: أي أخَذْتَ له منه ما أرْضاه. والشَّكْوى: المَرَضُ نفسُه. وأشْكَيْتُ الرَّجُلَ: نَزَعْت عن شِكايَتِه وأعْتَبْته. وشَكَوْتُ إليه فما أشْكاني: أي ما أعانَني ولا واساني" (الصاحب بن عباد، 1994، 2\56)

وقال ابن منظور: "واشْتَكَيْته: مثلُ شَكَوْته. وَفِي حَدِيثِ ضَبَّة بن مِحْصَنٍ قَالَ: شَاكَيْتُ أبا مُوسى فِي بَعْض مَا يُشَاكِي الرجلُ أميرَه؛ هُوَ فاعَلْت مِنَ الشَّكْوَى، وَهُوَ أن تُخْبر عَنْ مَكْرُوهٍ أصابَك. والشَّكْوُ والشَّكْوى والشَّكَاةُ والشَّكَاءُ كُلُّه: المَرَض" (ابن منظور، 1414، شكا) وقد ذكر المرتضى الزبيدي أصل الكلمة والمعنى الحسي لها، ثمَّ كيف استعيرت الكلمة للتعبير عن شكوى القلب؛ فقال: "وأصْلُ الشَّكْو فَتْح الشَّكْوَةِ. وإظْهارُ مَا فِيهَا، وَهِي سِقاءٌ صغيرٌ، وكأنَّه فِي الأصْلِ اسْتِعارَةٌ كقَوْلِهم: بَثَثْتُ لَهُ مَا فِي وِعائي، ونَفَضْتُ لَهُ مَا فِي جرابي، إذا أظْهرْتَ مَا فِي قَلْبِكَ" (الزبيدي، 2001، بثث)

وأمَّا مفهوم الشكوى فيعني إظهار التوجّع والألم للآخرين من معاناة ما تعانيها النفس سواء أكانت جسدية كالشكوى من المرض والعلّة والداء، أو كانت نفسية كالهموم والاضطرابات الداخلية، كالشكوى من نوائب الدهر ومن الناس وغدرهم وخيانتهم وظلمهم، والشكوى من الفقر والحاجة ...، وقد تكون الشكوى نفسية وجسدية معًا كالشكوى من

الشيخوخة وتداعياتها الجسدية وأعبائها النفسية على الإنسان. وقد وسمت البحث بالبثّ والشكوى في شعر امرئ القيس ليشمل كل ما ذكرته من وجوه البوح والإفصاح والتعبير عن التعب الجسدي والنفسي وما تشتمل عليه من معاني الحزن والألم وغيرها مما عبَّر عنه الشاعر عن شتى همومه ومعاناته، وأفضى به إلى الآخرين ليخفف عن نفسه ما تتحمله منه.

ثانيا– بواعث البثِّ والشكوى عند امرئ القيس:

لا بد لنا قبل أن نخوض في موضوع البث والشكوى عند امرئ القيس من الوقوف على بعض الأمور المهمة المتعلقة بحياته والتي كان لها أثر في ظهور هذا الغرض الشعري عنده، فامرؤ القيس بن الملك حُجْر الكِنْدي، ويُسمَّى حُنْدُجًا وعَدِيًّا ومُلَيْكة، (السيوطي، 1966، 21/1) ويلقب بالملك الضَّلِيل وذي القروح، (ابن سلّام الجمحي، د.ت، ص45) و(ابن رشيق القيرواني، 1918، 94/1) شاعر فحل وفارس مغامر، ذو نسب تليد من جهة والديه؛ فأمُّه فاطمة بنت ربيعة أخت الشاعر الفارس المشهور المهلهل بن ربيعة التغلبي، ووالده حُجْر الكندي ملك كندة، وكان امرؤ القيس في شبابه قد انقطع عن ملك أبيه حُجْر الكندي إلى اللهو والمجون والغواني الحسناوات، وشرب الخمر، وحياة الشباب العابثة؛ حتى قيل فيه إنه أول من أدخل الشعر إلى مخادع النساء مخالفًا في ذلك الأعراف والعادات العربية، هذا السلوك العابث إلى جانب الفحش في الشعر لم يعجب والده الملك فتخلَّى عنه وطرده لعلَّ ذلك يزجره وينهاه ويعيده إلى رشده، لكنَّ الشاعر استمر في غيّه مصاحبًا شذّاذ القبائل وبعض صعاليك الصحراء ليعيش معهم حياة السبي والسطو واللهو والمجون، إلى أن جاءه ما غيَّر مسيرة حياته، عندما وصله نبأ مقتل أبيه على يد قبيلة أسد التي كانت خاضعة لحكمه، فاستيقظ الشاعر من غفوته، ونهض للأخذ بثأره، مستفرغًا كلَّ جهده وطاقاته وبقية حياته في سبيل هذا الهدف الذي يقدّسه الجاهليون ولا يرضون بديلًا عنه إلا نادرًا.

وهكذا يدور الدَّهر على الشاعر وتنقلب حياته رأسًا على عقب، وتريه وجهًا آخر كالحًا عبوسًا، ويبدأ امرؤ القيس بشق طريق جديدة صعبة لا بدَّ له من السير فيها، والعيش وفقًا لتقلباتها وتطوراتها، فيتابع حياته ساعيًا وراء هدفه، حاشدًا ما يستطيع من قوته وعزمه وأسلحته وأصحابه وأحلافه في سبيل ذلك، ولكن لم تجر الأمور كما أراد لها، وطالت المعارك سجالًا بينه وبين قتلة أبيه، حتى انفضَّ عنه كثير من أصحابه، وانصرف عنه موالوه رافضين الاستمرار معه في معركة لا ناقة لهم فيها ولا جمل، وكثر أعداؤه حتى لاحقه الفُرس ما اضطره للاستعانة بملك الروم الذي سانده بجيش في بداية الأمر، ثم انقلب عليه بعد وشاية أحد أعدائه، ما دفع القيصر لقتله غدرًا بحلّة مسمومة أهداها له فتفطّر منها جلده ولحمه، فبقي في أنقرة في بلاد الروم يعالج مرضه وقروحه حتى وافته المنية هناك. (الشنتمري، 1954، ص2) وذكر بعضهم أنه سُمِّي "ذا القروح" لذلك، ويستشهدون على قولهم هذا بشعر لامرئ القيس. (ابن قتيبة، 1423، 107/1–121)

هذه الرواية المشهورة حول سبب موت الشاعر، وهناك من عارضها وذكر أن سبب موته داء قديم كان يعاني منه قبل ذهابه إلى بلاد الروم، ثم عاوده في طريق العودة، واشتدَّ عليه عندما وصل إلى أنقرة، وتوفي هناك. (علي، 2001، 61/6) وهناك من رأى أن امرأ القيس كان مصابًا بمرض جنسي قديم انعكس في جلده لارتباط الأمراض الجنسية بالأمراض الجلدية، الأمر الذي أدى إلى موته بعد تفاقم هذا المرض. (مكي، 1974، ص92)

ولكن لم تختلف الآراء على ما يبدو في أن امرأ القيس هلك بداء عضال تقرَّح منه جلده سواء أكان سببه الحلّة المسمومة، أو كان داءً قديمًا عاوده في أنقرة، وله أبيات تؤكّد ذلك وصف فيها علّته وهو هناك. (امرؤ القيس، 1990، ص339)

هذه خلاصة حياة امرئ القيس التي انعكست بتفاصيلها في شعره، فكان مرآة صادقة صوَّرت مراحلها المختلفة وتقلباتها القاسية بداية بحياة الشباب العابث اللاهي ومرورًا بمقتل أبيه وفقدان ملكه ومحاولاته للأخذ بثأره، واستعادة إرثه السابق وإرث أجداده وصولًا إلى نهاية حياته بالدَّاء القاتل الذي أصابه؛ ولذلك لا عجب أن نرى شعره يجمع بين مغامرة الشباب واندفاعهم ومجونهم، وعزَّة الملوك وأنفتهم، وشكوى المهموم وآلام المريض المتوجِّع. أضف إلى ذلك أنَّ الفضل يعود لامرئ القيس في حفظ الإخباريين لتاريخ كندة أيضا. (علي، 2001، 64/6)

على أن خيوط الأسطورة والقصّ الشعبي لعبت دورًا كبيرًا في أخبار الشاعر وحياته، وقد وقف عليها بعض الباحثين محاولين تمييز الصحيح منها، ورفض بعضهم كثيرًا منها كاستطاعته الانتقام من بني أسد ولجوئه إلى القيصر، وقتل القيصر له، (علي، 2001، 6/ 62) و(مكي، 1974، ص92) ولكن على الرغم من تضارب الآراء حول هذه الأمور، فلم يختلف اثنان في وجود معاناة نفسية وجسدية في حياة الشاعر، وأنّه قد بثَّ ذلك في شعره، وشكا معاناته وهمومه الثقيلة فيه مما سنقف عليه في هذا البحث ونفصّل الحديث عنه.

وممَّا لا شك فيه أن ما مرَّ بامرئ القيس من ظروف قاسية صعبة، وأيام مريرة من لحظة إعلامه بموت والده وفقدانه له ولملكه، وما حمَّله هذا الأمر من عبء نفسي واجتماعي ألزمه برهن حياته للأخذ بثأره والانتقام من قتلته ومحاولة استرجاع المُلك الضائع، وما عاناه من الناس الذين انصرفوا عنه وتركوه في معركته وحيدًا حتى اضطر للجوء إلى القيصر لمساعدته، والمرض الذي عانى آلامه وأوجاعه التي أهلكته وقضت على حياته، كان وقودًا جزلًا لمشاعره وعواطفه، وكان لا بدَّ للشاعر من آهات وأنَّات ينفثها من حين لآخر يعبِّر فيها عن معاناته، ويشكو ما يعترضه من هموم ومصائب ليخفف وطأتها على نفسه، ويلفظ شيئًا من الضغط النفسي الكبير خارج جسده.

فالشكوى حالة ملحّة لكلّ إنسان، ومهما بلغ من القوة والشجاعة، فلا بدَّ أن تعتريه لحظات ضعف وانكسار ويأس يحتاج فيها إلى التعبير والتنفيس عن نفسه ويطلب الدَّعم النفسي من الآخرين لعلهم يشعرون به، ويخففون من معاناته بالوقوف إلى جانبه في قضيته؛ ف "كل انفعال له مظهر خارجي تعبيري" (عجابي، 2019، ص102) والشكوى هي المظهر الخارجي للاضطرابات الداخلية التي يعيشها الشاعر.

ثالثا- اتجاهات البثِّ والشكوى في شعر امرئ القيس:

بالعودة إلى أشعار امرئ القيس واستقصائها، نجد اتجاهات البثّ والشكوى الآتية فيه، والتي سوف نتناولها بالدراسة تباعًا:

1- شكوى المُلْك الضَّائع.

2- البث والشكوى من صروف الدهر ونوائبه.

3- البث والشكوى من العلّة والمرض.

4- البث والشكوى من الشيب والبكاء على الشباب.

5- البث والشكوى من المرأة.

6- البث والشكوى من البعد والفراق.

1 شكوى المُلْك الضَّائع:

الحزن الأول الذي يطالعنا في أخبار امرئ القيس وشعره، والحدث الذي ترك أثرًا كبيرًا في نفسه، وغيَّر اتجاه حياته، والذي نجده من بعده يبثُّ الشكوى في شعره هو فقدان والده وحزنه على موته، فبفقده لم يفقد أبًا فقط وإنما فقد سلطة وملكًا وعزًّا سيمضي حياته في سبيل استرجاعه، هذا الطارئ الذي حرمه حياة الطمأنينة والاستقرار والهدوء ولذَّة الرُّقاد، وفقد معه مظاهر الحياة المترفة الجميلة، الحياة اللاهية العابثة مع أصدقائه دون هموم أو مصائب، وكان قد وعى ذلك منذ اللحظة الأولى عندما جاءه خبر مقتل أبيه وهو بدمُّون، "فقال:

تَطاوَلَ اللَّيلُ علينا دَمُّونْ

دَمُّون إنّا معشرٌ يَمانونْ

وإنَّنا لِأهلِنا مُحِبُّونْ

ثم قال: ضيَّعني صغيرًا، وحمّلني دمه كبيرًا، لا صحوَ اليومَ، ولا سكرَ غدًا، اليومَ خمرٌ، وغدًا أمرٌ، ثم قال:

خليليَّ ما في اليوم مَصْحًى لشاربٍ ولا في غَدٍ إذْ كانَ ما كانَ مَشْرَبُ

ثم آلى لا يأكلُ لحمًا ولا يشربُ خمرًا حتّى يثأر بأبيه، فلمَّا كان الليل لاح له برقٌ، فقال:

أرِقْتُ لبرقٍ بليلٍ أهَلْ يضيءُ سَناهُ بأعلى الجَبَلْ

بقتل بنى أسدٍ رَبّهُمْ ألا كُلُّ شيءٍ سِواه جَلَلْ"

(ابن قتيبة، 1423، 107/1)

وهكذا بدأت معركة الثأر والانتقام وما يخالطها من قلق وترقب وهموم بدأ يشعر فيها امرؤ القيس بطول ليله وفقدانه لذَّة النوم والراحة التي يهنأ بها خالي البال عادة، حتى كأنَّ عينيه وقد جافاهما النوم عينا مصاب بالرَّمَد لا يستطيع النوم من الألم: (امرؤ القيس، 1990، ص158)

تَطاوَلَ لَيْلُكَ بِالأثْمُدِ ونامَ الخَلِيُّ، ولَمْ تَرْقدِ

وَباتَ وَباتَتْ لَهُ لَيْلَةٌ كَلَيْلَةِ ذِي العائِرِ الأرْمَدِ

وَذلِكَ مِنْ نَبَأٍ جاءَني وَخُبِّرْتُهُ عَنْ أبي الأسْوَدِ

ويؤكد تصميمَه على الأخذ بثأر أبيه، وأنه قرار لا تراجع فيه، وأمر لا مكان للصلح فيه، وأنه قد بدأ بإعداد العدة لمواجهة أعدائه من فرس سريعة قوية ودرع صلبة ورمح صلب مقوَّم، وسيف ماض: (امرؤ القيس، 1990، ص186)

فَإنْ تَدْفِنُوا الدَّاءَ لا نَخْفِهِ وَإنْ تَبْعَثُوا الحرْبَ لا نَقْعُدِ

فإنْ تَقْتُلُونا نُقَتِّلْكُمُ وَإنْ تَقْصِدُوا لِدَمٍ نَقْصِدِ

وَأعْدَدْتُ، لِلْحَرْبِ، وَثَّابَةً جَوَادَ المَحَثَّةِ والمَرْوَدِ

وَمَشْدُودَةَ السَّكِّ مَوْضُونَةً تَضاءَلُ في الطَّيِّ، كالمِبْرَدِ

وَمُطَّرِداً كَرِشاءِ الجَرُو رِ مِنْ خُلُبِ النَّخْلَةِ الأجْرَدِ

وذا شُطَبٍ غامِضاً كَلْمُهُ إذا صابَ بِالعظْمِ لم يَنْأدِ

" المحثَّة: من الحثّ والسرعة، والمَرْوَد: من إروادها في سيرها، يريد إذا استحثثتها أعطتك ما عندها. مشدودة السَّكِّ: يريد الدرع، والموضونة: المنسوجة كالوضين؛ وهو حزام الرحل المنسوج. وتضاءل في الطي: أي تلطف وتصغر إذا طويت فتصير كالمبرد (امرؤ القيس، 1990، ص186)"

ولا عجب فيما يخطط الشاعر له، فقد كانت مصيبته عظيمة، ولم ينته حزنه عند فقد والده فحسب، فالفاجعة التي حلَّت بقومه عامَّة أدهى وأعظم، فقد بعث المنذر بن ماء السماء خيلًا من بكر بن وائل في طلب آل حجر حين قُتل، ولاحقهم وذبحهم عند منازل بني مرينا، فكيف لا يغزو الحزن الشاعر! وكيف لا يسيطر عليه الكمد! وكيف لا يبكي! وقد حلَّ بقومه وأبيه ما حلَّ بهم، وضاع ملكُهم وقتلوا شرَّ قتلة: (امرؤ القيس، 1990، ص200)

ألا يَا عَينُ بكّي لي شَنِينَا وَبَكّي لي المُلُوكَ الذّاهِبِينا

مُلُوكاً من بَني حُجْرِ بنِ عَمرٍو يُساقُونَ العَشِيّةَ يقتَلُونا

فَلَوْ في يَوْمِ مَعْرَكَةٍ أُصِيبُوا ولَكِنْ في دِيَارِ بَني مَرِينا

فلمْ تُغْسَلْ جَماجمُهمْ بغُسلٍ ولَكنْ في الدّمَاءِ مُرَمَّلِينا

تظَلُّ الطّيرُ عَاكِفَةً عَلَيْهِمْ وَتَنْزِعُ الحَوَاجِبَ وَالعُيُونا

إنَّه لأمر يدعو للحزن حقًّا! أن يحصل هذا بأبناء جلدته وملوك قومه، وأن يموتوا ذبحًا وغدرًا بهذا الشكل المريع، وألا يموتوا ميتة الأبطال في أرض المعركة، وأن تترك أجسادهم في الصحراء دون أن يغسَّلوا أو يدفنوا كأي إنسان يموت ميتة الكرماء بين أبناء قومه! وإنما ضرجوا بدمائهم بدلًا من الماء، وكانت أجسادهم طعامًا للطيور تعكف عليهم تنهش لحمهم! إنّها صورة قاسية تغزو مخيلة الشاعر وتؤلمه، فلا يجد أمامه إلا بثَّ حزنه وشكواه لعلَّ هذا البوح يخفف ما يعتصره من ألم وحرقة؛ فالشكوى وسيلة مهمة للتنفيس "فمن خلال التعبير عن النفس وما يساورها من قلق وتوتر وإحباط قد يكون من الممكن جدًا التخفيف من حدّة ذلك الإحباط والتوتر" (أبو خيران، 2019) كما " تلعب الشكوى دورًا جوهريًا وأساسيًا في علاج الصدمات النفسية أو خلال الأحداث العصيبة" (أبو خيران، 2019)

وهذا الفقد الذي صدم الشاعر لا يعوضه شيء في المجتمع الجاهلي، فقبيلة الفرد هي سنده وعزوته وملجؤه في الملمات والشدائد، إليهم ينتسب وبانتمائه لهم يفتخر، وذهابهم وفقدانهم إنذار بضياع الشاعر وتهديد بحياة قاسية دون الشعور بأمان الانتماء إلى القبيلة وحمايتها.

فقدْ فقدَ الشاعر بفقدهم مناصريه الحقيقيين الذين تربطه معهم صلة الدم والنسب وهي أقوى صلة في المجتمع الجاهلي، وفقد القوة العظمى التي يستند عليها ولا يمكن أن يعوضها الآخرون؛ "وحينما يفتح الفرد عينيه على ما حوله يجد أنَّ كل امرئ في قبيلته يتغنى بانتمائه، ويعتدُّ بأرومته، بدءًا من والده وإخوته، وانتهاءً إلى رهطه وعشيرته، فجنسيته جنسية القبيلة المنحدر منها، وهُويته التي يحملها دائمًا، في حلّه وترحاله، ذلك الاسم الذي يميزه بين أفراد القبائل الأخرى، والذي يعصمه أن يتيه بينهم" (زيتوني، 2001، ص51)؛ ولذلك لم يخفِ حزنه، ولم يستطع التماسك، وإنما أخذ يبكي عليهم بكاء مرًّا ولا ينفكُّ يذكرهم في شعره.

2- البثّ والشّكوى من صروف الدَّهر ونوائبه:

إنَّ حزن امرئ القيس على أبيه وقومه وعلى ملكهم الضَّائع، جعله يبثُّ شكواه من الدَّهر الذي انقلب عليهم فجأة، هذا الدَّهر الخؤون الذي لا تغادر صروفه أحدًا، حتى الهضاب الصُّمُّ لا تصمد أمامه، فكيف لها أن تغفل عن الإنسان! ولذلك نجد الشاعر مع مرور الأيام وخبرته بصروف الدهر ونوائبه، وإدراكه أن لا سبيل للإنسان عليه يقرُّ بضعفه أمامه، ويؤمن بمصيره المحتوم الذي سيلقاه كما لقيه قبله أبوه وجده وغيرهم من أبناء قومه: (امرؤ القيس، 1990، ص99)

وقد طَوَّفْتُ في الآفاقِ حَتى ... رَضيتُ، مِنَ الغَنيمَةِ، بالإيابِ
أَبَعْدَ الحارثِ، المَلِكِ، بنِ عَمرو ... وَبَعْدَ الخيرِ حُجْرٍ، ذي القِبابِ
أُرَجِّي مِنْ صُروفِ الدَّهْرِ، ليناً ... ولم تَغْفُل عَنِ الصُّمِّ الهضابِ
وأعلمُ أنَّني، عَمّا قريبٍ ... سأنشَبُ في شَبَا ظُفْرٍ ونابِ
كمَا لاقَى أبي حُجْرٌ، وجَدّي ... ولا أنْسى قَتيلاً بالكُلابِ

إنّ إقرار الشاعر بالضّعف أمام الدَّهر لم يكن ممَّا سمعه أو رآه يجري مع الآخرين، وإنّما كان نتيجة خبرته الخاصة معه، ومواجهته لنوائبه، فقد غدرت أيامه به وبقومه؛ ولذلك يشكو بحرقة ويأس وحسرة ما وصل إليه بعد صراعه معه؛ فقد طوَّف في الآفاق سعيًا وراء هدفه محاولًا التغلّب على شدائده، لكنّه فشل في ذلك، وانقطع رجاؤه وخاب أمله، وعاد صفر اليدين أمامه، وتأكّد الشاعر أن تطوافه كان عبثًا لا طائل منه، وسوف يصيبه الدهر يومًا ويهلكه كما أهلك قبله ملوك قومه وأبناء قبيلته، وقد عبَّر الشاعر عن ذلك باستخدامه أسلوب التعجب الإنكاري، إنه يستنكر على نفسه أن تتأمل خيرًا ولينًا من الدهر بعد ما فعله، وهو الذي يأتي شره على كل شيء حتى الهضاب العظيمة الصلبة لا تنجو منه. فبهذه الشكوى وهذا البث والبوح يخفف الشاعر عن نفسه ما أصابها من قلق وحزن، ويصل إلى بعض من الهدوء النفسي، فالشكوى في أبسط إيجابياتها تعمل كوسيلة للتنفيس أو التفريغ، وتخفف من حدة اليأس والإحباط، وفي رأي أستاذة علم النفس في جامعة كليمسون (روبن كوالكسي) أنها تعمل كأداة لكسر الجليد المتراكم في النفس، وفي الوقت نفسه تساعد في تكوين انطباع ما عن الشخص عند الآخرين.(أبو خيران، 2019) فربما يهدف امرؤ القيس إلى التخفيف من حدّة نظرة المجتمع الجاهلي، كونه لم يدرك ثأر أبيه الملك كما ينبغي، وفي أعراف هذا المجتمع وتقاليده أن عدم إدراك الثأر عار لا يمحى، فيحاول أن يلتمس عذرًا لنفسه أمامهم بأن الإنسان ضعيف أمام الدهر ولا يمكن أن ينتصر عليه أبدًا، ومما لا شك فيه " أن تعليل الأثر الأدبي بالسيكيولوجيا الفردية يظل جزئيًا، مهما كان جديًّا، ذلك أن الحياة النفسية تؤثر فيها الحياة الاجتماعية" (الدروبي، د.ت، ص 93).

وقد تكرر هذا المعنى حول الدهر في أبيات أخرى يبدو الشاعر فيها كحكيم عركته تجارب الأيام وصقلته فأخذ ينقل لنا نتيجة تأمله في حوادث الدهر وأفعاله، موضحا لنا عصارة ما توصل إليه، يقول لزوجته وقد عيَّرته بكبره وزوال شبابه: (امرؤ القيس، 1990، 309)

تقول ليَ ابنةُ البكريِّ لمَّا ... عَزَفْتُ من الصِّبا واللَّهو بالا
أرى الملكَ الّذي قد كانَ فينا ... يفيدُ رغائبا ويُفيتُ مالا

أرى الملكَ تبدّل بعدَ جِدَّته شُحُوبًا وأصبحَ حبلهُ خَلَقًا مُذالا
ألَمْ يحزنك أنّ الدّهْرَ غُولٌ خَتُورُ العَهْدِ يَلْتَهِمُ الرّجَالا
أزَالَ مِنَ المَصَانِعِ ذا نُواسٍ وَقَدْ مَلَكَ الحَزُونَةَ والرِّمالا
وأنْشبَ في المخالب ذا خليلٍ وللزَّرَّاد قدْ نَصَبَ الحِبالا
وفجَّعَ كِنْدةَ الأخيارَ طُرًّا بعَمْرٍو واصطفى حُجْرا فَزالا
وَبَيْنا كانَ في الأحياءِ طَوْراً رماهُ الدَّهرُ من كَثَبٍ فَمالا
أبَعْدَ شَنُوءَةَ الأبطالِ أرجو لَيَانَ العيشِ أو أبغِي احتيالا
فإنْ تكُ دارُ آلِ الأزْدِ زالتْ فكلُّ النَّاسِ ينتظرُ الزَّوالا

فالشاعر يستنكر من زوجته ألا تجزع من حوادث الدهر قائلا لها "ألم يحزنكِ" أي حقيق بك أن تحزني من نوائب الدهر وفواجعه بدلًا من السخرية بي وتعييري بالكبر، فهو غول غادر يبتلع الرجال ويهلكهم. إنها صورة معبرة عن حقيقة الدهر وفعله بالناس، وما تشبيهه بالغول الغادر إلا ليظهر توحشه وقوته وتمكنه وبشاعة صورته من جانب، وأنه من جانب آخر غادر لا يؤمن جانبه؛ فالغول في عرف الناس يتلون ولا يستقر على شكل واحد، وكذلك الدهر لا يؤمن جانبه ويغدر بالناس على حين غِرَّة، ويلتهم الرجال منهم، وخصَّ الشاعر الرجال لأنهم الأقوى، وهذا يظهر قوة الدهر وجبروته أكثر، وكذلك كلمة "التهمَ" التي تعني الابتلاع تبين أنه يقضي عليهم قضاء تاما ويهلكم ولا يبقي منهم شيئا. والشواهد والأدلة التي يسوقها الشاعر كثيرة؛ فقد أهلك ملوك اليمن الذين سادوا وملكوا الجبال والرمال ومنهم ذو المصانع وذو خليل والزرَّاد، كما فجع قبيلة الشاعر خاصة وانتقى خيارها وأهلكهم ومنهم جَدُّ الشاعر عمرو ووالده حجر، وكي يبين الشاعر بشاعة فعل الدهر أكثر جاء بصور توضِّح قوته وتوحشه وغدره منها "أنشب في المخالب... نصب الحبالا" كما أن استخدام الشاعر لكلمة (فجّع) يوضح عمق حزنه على فقد أبيه ورجال قومه، فكيف للشاعر أن يهنأ له عيش وكيف له أن يحتال على هذا الدهر! وأخيرا يعزي الشاعر نفسه ويلجأ إلى الحكمة ويلوذ بالعقل، بأن ما حلَّ بهؤلاء الملوك من قومه لا بُدَّ أن يلقاه الناسُ جميعًا، فكلّهم سيأتي عليهم يومٌ يهلكون فيه ويفنون. فالزوال والفناء مصير الناس كلّهم والخلود محال لأيٍّ منهم.

ونلاحظ أن هذا المعنى يتكرر كثيرا في شعر امرئ القيس وهو يتأمل فعل الدهر وغدره، فتصبح شكواه شكوى تأملية مليئة بالحكمة، يقول مرسخًا فكرة غدر الدهر، وعدم الركون إليه:(امرؤ القيس، 1990، ص269)

فمَنْ يأمنِ الأيَّامَ بعدَ ابنِ هُرْمُزٍ نزلنَ بهِ كما نزلنَ بِقَيْصَرا
وبعدَ مَعدٍّ يبتغي حِرْزَ نفسِهِ إلى كهفِ غارٍ يحسِبُ الكهفَ أوعَرا
فصادفْنَ منه ذاتَ يومٍ ولمْ يكنْ ليسبقَ ما كادَ المليكُ وقدَّرا
وبعدَ أبي في حصنِ كندةَ سَيِّدا يسودُ جُموعًا من جيوشٍ وبربرا
ويغزُو بأعرابِ اليمانين كُلِّهمْ له أمْرُهم حتَّى يَحُلَّ المشقَّرا

فالشاعر يتعجب من الإنسان الذي يطمئن للأيام ويشعر بالأمان تجاهها، وقد فعلتْ ما فعلته بالرجال الأسياد الأقوياء كابن هرمز وقيصر ومعدٍّ الذي حصَّن نفسه بكهف ظنًّا منه أنَّ يد الدهر لن تطاله، ووالد الشاعر أقرب الناس له الذي كان

متحصنًا في حصن كندة، والذي ملك وساد الجموع من عرب وغيرها، وحكم اليمنيين، وكان قائدهم في غزواتهم التي امتدت إلى كثير من المواضع. فكيف له أن يأمن مكر الأيام وغدرها بعد كل هذا! لا شك أن ذلك محال. وصورة الدهر هذه راسخة عند الشاعر لا تتبدل، إنَّه موكل بتفريق العشائر وتضييع الأموال: (امرؤ القيس، 1990، ص278)

ألمْ تَرَيَا وريبُ الدَّهر رَهْنٌ بتفريقِ العشائرِ والسَّوام

واستخدام الشاعر لكلمة (رهن) يؤكد فعل الدهر بالناس والأموال وكأنه تخصص بهذا الأمر وحصر عمله به.

وقد لاحظ الشاعر أيضا أن الدهر يغريه أن يصيب الإنسان وهو في ذروة تألقه، فبينما يكون كالشهاب الثاقب تأتي حدثان الدهر فتذهب نوره وشعاعه وتخمد ضوءه، إنه دهر غادر مخادع، يخدع الإنسان الجَلْدَ القوي، ولا يخشاه بل يهلكه علانية وجهارًا، ويقود الأسد الشجاع من الناس إلى موته ونهايته ولا يمكنه فعل شيء أمامه على الرغم من قوته وشجاعته: (امرؤ القيس، 2019، ص217)

بَيْنَمَا المَرْءُ شِهَابٌ ثاقِبٌ ضَرَبَ الدَّهْرُ سَنَاهُ فَخَمَدْ

يخدعُ الجَلْدَ ويُودِي جَهْرَةً ويقودُ الموتَ لِلْحَيْنِ الأسدْ

إن الشاعر يتعجب من تقلّب الدهر على الناس وتغييره لأحوالهم وعبثيته في ذلك، فكم ألحق الأذى بشخص جاد يسعى قدمًا في تحصيل عيشه فأفقده مكتسباته وماله ومجده، وكم من فقير كان بالكاد يؤمن عيشه فغيَّر حياته وجعل منه إنسانًا غنيًا ممجدًا:

وَبِجَهْدٍ يَتنضَّى عيشَهُ عاضَه الدَّهرُ ثراءً فَمَجَدْ

ونلاحظ تكرار الشاعر لكلمة (الدهر) في الأبيات، هذا التكرار يؤكد جزع الشاعر من جبروت الدهر وسيطرته وقوة تحكمه، والقلق الذي أصابه جراء ما ألحقه به من ملمات ونوائب؛ وأسلوب التكرار يوثق المعاني في النفوس، ويثبتها في الأذهان، ويمكّنها من العقول "وحينما يتعمق مقطع من المعنى في حس الشاعر تراه يكرره، وتراه أحيانا يلح في تكراره ليقرره في النفوس كما تقرر في نفسه أولا" (أبو موسى، 1996، ص 293) ولذلك فإن امرأ القيس يكرر فكرة عبثية الدهر الذي فُقدت فيه المعايير الضابطة المتزنة، فيقول: (امرؤ القيس، 1990، ص218)

لا يَضُرُّ الْعَجْزُ ذا الْجَدِّ وَلا يَنفَعُ الْمَحْرُومَ إيضَاعٌ وَكَدْ

عَاجِزُ الْحيلَةِ مُسْتَرْخِي الْقُوَى جَاءَهُ الدَّهْرُ بِمَالٍ وَوَلَدْ

وَلَبِيبٌ أَيِّدٌ ذُو مرَّةٍ مُحْكَمُ الآرَاءِ مَأْمُونُ الْعُقَدْ

خَصَّهُ الدَّهْرُ وَغَطَّى حَزْمَهُ وَاْنْتَضَاهُ منْ عَبيدٍ وَسَبَدْ

فالعجز وعدم الحيلة كما رأى امرؤ القيس لا يضر من يقف الدَّهر في صفّه، كما لا جدوى من الكدِّ والجهد والتعب ممن يعاديه الدهر، فكم من إنسان لم يبذل جهده ولم يسعَ في رزقه، جاءه المال والولد بكل يسر وسهولة، وكم من لبيب عاقل حاذق شديد أحكم أموره وبرع فيها، ولكن الدهر انتقاه بالبلاء ولم تنفعه قوته وشدته، فأهلك له ماله وعبيده؛ ويبدو أن هذا الإنسان الذي يذكر امرؤ القيس خذلان الدهر له ويصفه بالجلد والأسد واللبيب والشديد والحكيم والحازم وغيرها من الصفات إنما هو المعادل الموضوعي له، فلا شك أن امرأ القيس هنا يقصد نفسه ويبث شكواه عما فعله الدهر به حين

خذله ولم يقف في صفّه على الرغم مما يمتلكه من صفات الفروسية والشجاعة والحزم والإقدام وغيرها، واستطاع امرؤ القيس بتعبيره هذا أن يعمم تجربته لتشمل الإنسان عامة ففي المعادل الموضوعي " يجسد الشاعر عاطفته في صورة حسية ويختبئ وراءها ولا يفضي بذاته للقارئ لتصبح تجربته موضوعية لا ذاتية وعامة لا شخصية" (حمودة، 2022، ص829-876)

والجدير بالذكر أنه على الرغم من تكرار امرئ القيس للمعاني والألفاظ المتعلقة بالدهر في الأبيات السابقة إلا أنه أجاد في ذلك ولم يصبنا بالملل منها ولم نسأم من تكرارها؛ فحافظ على قوتها ودلالتها، و"كي يحافظ الشاعر على ألق العبارة يجب أن يبعد شبح الموت عن المعاني المكررة، ويبعث ألقًا في الألفاظ بحيث تحتفظ بقدرتها الإيحائية العاملة على إثارة جديد لاحق لا إماتة معنى قديم شائع". (قاسم، وديب، 2003، ص37)

3 البث والشكوى من العلّة والمرض:

إن المصائب والنوائب التي أصابت الشاعر في حياته، جعلته يعيش معاناة نفسية عميقة وهمومًا تنوء الجبال بحملها فأخذ يشكو في شعره تلك الآلام والهموم النفسية التي أضيف إليها المرض الجسدي الذي ألمَّ به في آخر حياته، وامرؤ القيس لم يكن يشتكي همًّا أو تعبًا ونصبًا في المرحلة الأولى من حياته، التي قضاها شابًا لاهيًا عابثًا مسرورًا كما يظهر ذلك في شعره، حتى انتهت تلك الحياة السعيدة، وحمل عبء دم أبيه وبدأ السعي للانتقام من قتلته، وإرجاع الملك الضائع والمجد السليب، هذا المجد الأصيل الشريف الذي كان يسعى إليه كما يصرح في قوله: (امرؤ القيس، 1990، ص39)

فَلَوْ أنّ ما أسعَى لأدْنى مَعِيشَةٍ كَفاني، وَلَمْ أطْلُبْ، قَلِيلٌ مِنَ المَالِ

وَلَكِنّمَا أسْعَى لِمَجْدٍ مُؤَثَّلٍ وَقد يُدركُ المَجدَ المُؤثّلَ أمثَالي

ويبدأ صوت الحزن ينبعث من شعره إثر مقتل أبيه، والهموم تغزوه، فقد حمل الشاعر مسؤولية دم أبيه، ورجالات قومه الذين قتلوا، واستعادة الملك الضائع منهم، وبدأت معركته المصيرية، هذا الأمر الذي جعل ليله طويلًا فاقدًا لذة الراحة والنوم التي ينعم بها خلي البال: (امرؤ القيس، 1990، ص185)

تَطاوَلَ لَيْلُكَ بِالأثْمُدِ ونَامَ الخَلِيُّ، وَلَمْ تَرْقُدِ

وَبَاتَ وَبَاتَتْ لَهُ لَيْلَةٌ كَلَيْلَةِ ذِي العائِرِ الأرْمَدِ

وَذلِكَ مِنْ نَبَأٍ جاءَني وَخُبِّرْتُهُ عَنْ أبي الأسوَدِ

ونلمس في الأبيات صدق الشاعر وبراعته في التعبير، حتى إن هذه الأبيات انتزعت إعجاب علماء البلاغة، من خلال الالتفاتات الثلاثة التي جاء فيها الشاعر متتالية، وقد وقف السكاكي عندها مبينًا بلاغتها، جاء أحدها في " ليلك" لأنّه خطاب ومقتضى الحال (ليلي) بالتكلّم، والثاني في "بات" لأنه غيبة ومقتضى الحال (بتُّ) بالتكلّم أيضًا، والثالث في "جاءني" لأنَّه تكلّم ومقتضى الحال (جاءكَ) بالخطاب. وقال السكاكي: "والعرب يستكثرون من الالتفات ويرون الكلام إن انتقل من أسلوب إلى أسلوب أدخل في القلوب عند السامع، وأحسن تطرية لنشاطه وأملأ باستدرار إصغائه وهم أحرياء بذلك" (السكاكي،1987، ص74)

ولمس السكّاكي فيها العاطفة الصادقة في استخدام الشاعر لضمير الغائب بدلًا من ضمير المتكلّم؛ وذلك أن امرأ القيس حين لم يستطع التثبُّت والتصبُّر كما يفعل الملوك عادة وكما جرت سننهم عند فظاعة الخطب وهول المصيبة أقام

من نفسه مقام مكروب ذي حرق فقال تطاول ليلك في الالتفات الأول، ثم حين أفاق من الصدمة الأولى مدركًا بعض الإدراك بنى الكلام على الغيبة قائلًا وبات وباتت له، وفي التفاته الثالث تنبَّه على التفاته الأول على أن نفسه حين لم تثبت ولم تتصبر غاظه ذلك فأقامها مقام المستحق للعتاب قائلا له على سبيل التوبيخ والتعيير جاءني. (السكاكي،1987، ص200) و(ابن أبي الإصبع،1963، ص124) و (البغدادي،1997، 135/1) و(الكرماني، 1424، 403/1)

وهذا كلُّه يدلُّ على صدمته وهول فاجعته، وصدق عاطفته، والهمّ العظيم الذي يشكوه حتى طال ليله وانعدمت راحته وكأن رمدًا حلَّ في عينه يسبب له الألم والوجع ويمنعه من النوم.

وفي غمرة هذه الأحزان وثقل الهموم التي تغزو الشاعر، يلتمس من أصدقائه أن يعودوه علَّهم يخففون عنه ما حلَّ به من أنواع الأسقام النفسية والجسدية: (امرؤ القيس، 1990، 216)

مَنْ هنا لي مِنْ صديقٍ فَلْيَعُدْ ... لِيَعُدْني إنَّنِي اليومَ كَمِدْ
مِنْ خُطوبٍ تركتني قَلِقًا ... قلقَ المِحْوَرِ بالكَتِّ المَسَدْ
بَيَّتتني بهمومٍ شُرَّعٍ ... خَلَستْ نَومي وأحْذثْنِي السُّهُدْ
ليتَ شعري ولِلَيتَ نَبْوَةٌ ... أينَ صارَ الرُّوحُ إذْ بانَ الجسدْ

ويبدو من خلال سؤاله أنه كان بعيدًا عن أصدقائه وأهله؛ ولذلك يسأل إن كان هناك صديق قريب منه كي يعوده ويخفف عنه لأنه حزين جدا؛ فقد تركته المصائب والخطوب قلقا فاقدا للأمان والاستقرار النفسي، مضطربا كأنَّه (المحور) وهو العود المضطرب بحركته في فلك البكرة، وهذا تشبيه حسي أتى به الشاعر من بيئته الصحراوية كي يقرب الصورة من الأذهان، ويوضِّح مدى الاضطراب والقلق المسيطر عليه. والقلق "حالة انفعالية معقدة وإحساس مزعج في العقل وينشأ من الخوف وعدم التأكد من المستقبل، وهو شعور لا يمكن ضبطه أو التحكم فيه" (عجابي، 2019، ص 102) كما أثقلت تلك النوائب حياة الشاعر بالهموم وسلبت نومه ووهبت له بدلا منه السهر والأرق، ثم يتساءل الشاعر ما الذي يؤمله الإنسان وما الذي يستطيع أن يتمناه من شعره وكلامه إذا فارقت الروح الجسد وهلك الإنسان! وهنا نشعر باليأس والإحباط الكبير الذي انتهى إليه الشاعر حتى فقد الأمل وسيطرت عليه الأحزان.

ولم تقتصر معاناة الشاعر في حياته على الهموم النفسية، فقد أصابه داء ومرض عضال في نهاية حياته، وإن اختلفت الأخبار حول مصدر المرض وسببه، لكن المصادر تجمع أن امرأ القيس أصيب في نهاية حياته بداء عضال تفطَّر منه جلده، وأصابه بأوجاع وآلام شديدة حتى وافته المنية في أنقرة بعيدًا عن بلاده وأهله. فأخذ يشكو آلامه وسوء حاله في شعره، وينفث من خلاله أنّات الوجع والحزن. والشكوى من المرض حاجة نفسية مهمة وملحة؛ لأنَّها تخفف من الآلام الجسدية ومن ثقل الهموم النفسية من خلال ما يطلقه الإنسان من صيحات الشكوى وأنّات الوجع، وتكشف عن حقيقة الإنسان وهو يعيش في رحم المعاناة وداخلها. لأنّها تصدر من نفس متعبة صادقة تتلوى ألماً ووجعاً حتى تفيض على لسان الشاعر شعراً يقطر حزنا ويمتلئ أسًى.

فقد تغيرت حال الشاعر من الصحة والعافية والقوة إلى الضعف الجسدي والوهن والتعب النفسي، ويزداد ذلك وطأة عندما يكون المرض شديداً كمرض الموت الذي يلقي على الشاعر أحمالًا نفسية إضافية فتختلط الشكوى عنده بالمرارة

والأسى والحزن الدفين والقلق والجزع لسوء حاله وفقده الصحة الجسدية التي كانت تكلّله في الماضي عندما كان يعيش بجسد سليم بعيد عن الأذى والآفات، والآن يسيطر عليه الشعور باقتراب الموت منه، ومشاعر فقد الحياة ومغادرتها، هذه المشاعر والانفعالات المختلطة أصابت امرأ القيس في معاناته مع مرض موته، وألم القروح التي أصابت جلده، وتساقط لحمه، واشتداد سقمه ومعاناته، ثم ما لبث أن خطفه الموت إثر تلك المعاناة الشديدة، فما كان من أمر الشاعر وهو يكابد الأوجاع والأسقام إلا أن تستفز طاقته الإبداعية في محاولة لتخفيف الألم ومقاومة الانكسار والانهزام أمام قوة المرض وجبروته، فأخذ يبث شكواه واصفاً داءه الذي ألم به: (امرؤ القيس، 1990،ص105)

فإمَّا تَريْني لا أغمِّض ساعةً   منَ اللّيل إلا أن أكِبَّ فَأنْعَسا

تَأوّبَني دَائي القَدِيمُ فَغَلَّسا   أُحَاذِرُ أنْ يَرْتَدّ دائي فأُنْكَسا

فَيا رُبّ مَكرُوبٍ كَرَرْتُ وَرَاءَهُ   وَطاعَنْتُ عَنهُ الخيلَ حَتى تَنَفَّسا

وَيَا رُبّ يَوْمٍ قَدْ أرُوحُ مرَجَّلاً   حَبِيباً إلى البيضِ الكَوَاعبِ أملسَا

يَرُعنَ إلى صَوْتي إذا مَا سَمِعْنَهُ   كمَا تَرْعوِي عِيطٌ إلى صَوْتِ أعيَسَا

أرَاهنّ لا يُحْبِبنَ مَن قلّ مَالُهُ   وَلا مَنْ رَأينَ الشَّيبَ فيهِ وَقَوّسا

إن هذا المرض الشديد صرف عنه النوم، فالنّعاس يأخذه ولكنه لا يستطيع الاستسلام للنوم ساعة واحدة لما يشعر به من الأوجاع، هذه الأوجاع التي تعود إليه مع قدوم الليل بعد ظنّه أنه قد برئ منها، وهذا دأب الأسقام وعاداتها تعاود الإنسان في الليل خاصة، إذ يخلو الإنسان فيه بنفسه، ويتفرغ لهمومه، وامرؤ القيس يحاذر من هذا الإحساس خشية أن يشعره ذلك بالضعف ويسبب له الانتكاس، وينبئ بمزيد من الآلام النفسية؛ ولذلك نراه ينكفئ إلى الماضي في محاولة لمواجهة الحاضر القاسي، فيتذكر حاله في زمن الشباب عندما كان معافى يتحلى بالصحة والسلامة، وعندما كان فارساً مغواراً يغيث المكروب ويخلصه من كربته وشدته، وكان شاباً جميلاً يتمتع بطلة بهية تعجب بها الفتيات الشابات، فما إن يسمعن صوته حتى يرجعن إليه كما ترجع الإبل إلى فحلها، ولكنه سرعان ما يعود إلى الواقع الآن فبعد المرض والضعف وفقد الشباب وتكاثر الأمراض، انصرفت عنه الحسناوات، ولا عجب في ذلك، فالشاعر يعلم طبع النساء، وأنهن لا يحببن من قلَّ ماله وكثر شيبه وتقوّس ظهره.

ثم يصرِّح الشاعر بما يقلقه ويجعله خائفًا مضطربًا، فهو لا يخاف مما نزل به في هذه الحياة من مصائب ونوائب، ولكن ما يقلقه ويثير هلعه أن يعجز عن القيام بشؤونه الطبيعية اليومية، حتى ذراعه من ضعف قوتها لا تساعده على لبس ثيابه من شدة المرض، فمرضه لم يكن سهلًا، ولم يكن عارضًا، بل كانت أوجاعه عظيمة لا تنتهي، وما يزيد الأمر سوءاً، أنه بسبب شدة هذه الآلام، لم يكن يموت ميتة واحدة، وإنما كان يموت شيئًا فشيئًا وتخرج نفسه تباعاً، ولكنه مع كل هذا الألم يلجأ إلى الحكمة ويلوذ بالأمل كي يخفف عن نفسه فقد يأتي الرخاء بعد الشدة ، وقد يأتي بعد الشيب عمر ومستمتع:

وَمَا خِفْتُ تَبريحَ الحَياةِ كما أرَى   تَضِيقُ ذِراعي أنْ أقومَ فألبَسَا

فَلَو أنّهَا نَفسٌ تَمُوتُ جَمِيعَةً   ولَكِنّهَا نَفسٌ تَساقطُ أنْفُسَا

وَبُدِّلتُ قَرْحَاً دامياً بَعدَ صِحّة   لعلَّ مَنايانا تحوّلنَ أبْؤُسَا

ألا إنّ بَعدَ العُدْمِ للمَرْءِ قِنْوَةً   وَبعدَ المَشيبِ طولَ عُمرٍ ومَلْبَسَا

" القِنْوَةُ والقُنْوَةُ: الكِسْبَة" (ابن منظور، 1414، قنو)

وفي قصيدة أخرى يصف ما حلَّ به من سقم وضعف ويشكو ما لحقه من تبعات القرح الذي أصابه، فقد أصبح ضعيفاً غير قادر على الوقوف حتى كأنَّه مصاب بداء النِّقْرِس الذي يصيب المفاصل والعظام ويضعفها، فقد ألبسه القرح لباسًا باليًا خلقًا من المرض والوهن، وبدت القروح في جلده كنقش الأختام على الصحائف:(امرؤ القيس، 1990، ص339)

فَإمّا تَرَيْني بي عُرّةٌ كَأنِّي نَكِيبٌ منَ النِّقْرِسِ

وَصَيّرَني القَرْحُ في جُبّةٍ تُخَالُ لَبيساً وَلَمْ تُلْبَسِ

تَرَى أثَرَ القَرْحِ في جِلْدِهِ كَنَقْشِ الخَواتِمِ في الجِرْجِسِ

وقد أجاد امرؤ القيس في رسم هذه الصورة التي عبَّرت عن حاله وعن شكل تلك القروح المزعجة وتناثرها على جسده، عندما لجأ إلى الصور الحسية واستطاع من خلالها نقل إحساسه إلينا "والذي يجعل الصورة ذات فاعلية ليس هو وضوحها كصورة بقدر صفتها كحادث ذهني له ارتباط خاص بالإحساس، تأتي فاعليتها من كونها " رسم باق" أو " تمثيل للإحساس" (وليك، وآرن،1992، ص255) وهي صور حسية بصرية ولكنها تحمل كثيرًا من المعاني الداخلية" "فالصورة البصرية هي إحساس أو إدراك، ولكنها أيضا تشير إلى شيء غير مرئي شيء داخلي" (وليك و آرن، 1992، ص255) وهي صورة صادقة توضِّح معاناة الشاعر الجسدية مع المرض وإحساسه به، وما ألحقه به من آلام نفسية أيضا تظهر من خلال وصفه الدقيق لشكل جسمه الضعيف وجلده المتفطِّر المتقرِّح المتساقط، ولا شك أن هذه معاناة شديدة وجسيمة تنوء الروح عن حملها، فكيف إذا أضيف إليها الشعور باقتراب الموت ونهاية الحياة، وكذلك الغربة التي كان يعيشها امرؤ القيس بعيداً عن أرضه ووطنه، وقد أدرك أن نهايته في بلاد غريبة بعيدة وأن لا عودة ترجى إلى الوطن. فقال عندما رأى قبراً لامرأة من بعض بنات ملوك الروم: (امرؤ القيس، 1990، ص357)

أجارَتَنا إنَّ الخُطُوبَ تَنوبُ وإني مُقِيمٌ ما أقامَ عَسِيبُ

أجارَتَنا إنّا غَريبَانِ هَهُنَا وكُلُّ غَرِيبٍ للغَرِيبِ نَسيبُ

فإن تَصِلِينَا فَالقَرَابَةُ بَيْنَنَا وإنْ تَصْرِمِينَا فالغَريبُ غريبُ

أجارَتَنا ما فاتَ لَيْسَ يَؤوبُ ومَا هُوَ آتٍ في الزَّمانِ قَرِيبُ

ولَيْسَ غريباً مَن تَناءتْ ديارُهُ ولكنَّ مَنْ وارى التُّرابُ غَرِيبُ

إن رنَّة الحزن والاستسلام واليأس واضحة في الأبيات، فقد خاطب هذه المرأة المتوفاة ب (جارتنا)؛ لأنه أدرك أن موته وشيك جدًا، وأنه سيجاورها قريبًا، وقوله إنه مقيم ما أقام جبل عسيب يؤكد هذا الإحساس بالنهاية الأبدية القريبة، ويشكو همه لهذه المرأة في بلاد الغربة التي عزَّ فيها من يشكو إليه؛ لأنَّها غريبة ووحيدة مثله وتعلم معاناة الغرباء، وإن لم تشعر به فلا بأس لأنه غريب في الأحوال كلّها، وهذا المعنى يؤكد الشعور بالإحباط واليأس الذي وصل إليه الشاعر حتى استوت عنده الأمور ولم يعد يبالي بمن يصله ومن يقطعه، ثم يظهر ذلك مرة أخرى في الحكمة التي يركن فيها إلى

العقل، ليبين أن ما فات لا يمكن أن يرجع فالزمن لا يرجع إلى الوراء، وإنما يتقدَّم إلى الأمام بسرعة، والقادم هو الموت لا محالة، والغريب ليس من ابتعد عن دياره، ولكن الغريب من واراه القبر وذهب إلى عالم آخر تحت التراب.

ويبدو أن هذه الغربة، وبعد الشاعر عن الوطن والأهل، كان يشعر امرأ القيس بالقلق والألم النفسي العميق إلى جانب المرض العضال والألم الجسدي، فتكررت هذه المعاني وأشباهها في شعره، كهذه الرسالة التي يحثُّ فيها الشاعر من يسمعها أن يبلغها لقومه شاكيًا لهم سوء حاله، وما آل إليه أمره في الغربة: (امرؤ القيس، 1990، ص213)

ألا أبْلِغْ بَني حُجْرِ بنِ عَمْرٍو وَأبْلِغْ ذلِكَ الحَيَّ الحَدِيدَا
بِأنِّي قَدْ هَلَكْتُ بِأرْضِ قَوْمٍ سَحِيقاً مِن دِيَارِكُمُ بَعِيدا
ولَوْ أنِّي هَلَكْتُ بِأرْضِ قَوْمي لَقُلْتُ المَوْتُ حَقٌّ، لا خُلودا
أُعالِجُ مُلْكَ قَيْصَرَ كُلَّ يَوْمٍ وأُجْدِرُ بِالمَنِيّةِ أنْ تَقُودا
بِأرْضِ الشّامِ لا نسَبٌ قَرِيبٌ ولا شافٍ فَيُسْنِدَ أوْ يَعُودا

فأكثر ما يؤلم الشاعر أنه هلك بعيدًا عن أهله وأقربائه وديارِه، وهذا الأمر ضاعف مشاعر الحسرة والأسف والحزن عنده، ولو أنه مات في أرض قومه وبين أحبابه لكان الموت أرحم من الموت هنا وأخف وطأة عليه دون قريب يسنده في أزمته أو يزوره ليطمئن عليه. حتى إننا نراه يستعجل لحظة موته ليتخلص من الألم الذي يعيشه، فيدعو على نفسه بالموت، ولا يفعل الإنسان ذلك إلا عندما يجد الموت أفضل من الحياة، وهذا يفسر لنا الحالة الصعبة الشديدة التي وصل إليها: (امرؤ القيس، 1990، ص357)

لقدْ دمعتْ عيناي في القَرِّ والقَيْظِ وهلْ تدمَعُ العينانِ إلَّا مِنَ الغيظِ
فلمّا رأيتُ الشّرَّ ليسَ ببارحٍ دعوتُ لِنفْسي عندَ ذلكَ بالفيْظِ

وتملؤه الحسرة على نهايته الوشيكة في أنقرة بعيدًا عن دياره وأهله، وهو الرجل الذي تحلّى بالصفات العظيمة التي لا تستحق تلك النهاية المفجعة: (امرؤ القيس، 1990، ص349)

رُبْ طعنةٍ مُثْعَنْجِرهْ
وجَفْنةٍ مُتَحَيِّرَهْ
وقصيدةٍ مُحَبَّرَهْ
تَبقَى غَدًا بِأنقرهْ

"مثعنجرة: التي يسيل منها الدم، متحيرة: الممتلئة طعامًا ودسمًا، الجفنة: القصعة الكبيرة" (ابن منظور، 1414، ثعجر، حير، جفن)

فكل ما يمتلكه امرؤ القيس من فروسية وشجاعة ومن كرم وجود، ومن براعة في نظم الشعر، كلّه سوف يدفن في الغربة، وتنتهي مسيرة هذه الميزات والصفات في أنقرة بعيدًا عن أرضه وأهله! كم يشعر الإنسان هنا بالألم والإحباط والانكسار والعجز!

وهكذا كشفت الشكوى من المرض عن الآلام الجسدية والأسقام والدنف الذي كان يعانيه الشاعر من دائه العضال، وما رافقه من آلام نفسية عميقة، ومن شعور بالغربة وفقدان الأهل والنصير، فكانت صورة حقيقة واقعية للحظات الأزمة

الشديدة والبلاء العظيم الذي يحلّ بالإنسان، وكيف يبقى الإنسان حتى لحظات حياته الأخيرة معلقًا بالأمل يبحث عمّا يخفف عنه الألم والمعاناة، فينفث حرارة ألمه وجوفه وأنفاسه المتخمة بالوجع في شعره الذي خلّد معاناته وحفظها، ليذكرنا أن المعاناة الإنسانية مع المرض واحدة رغم تقدم الزمان وتغيّر المكان.

4- البث والشكوى من الشيب والبكاء على الشباب:

كثيرا ما نجد الشعراء يشتكون من الشيب ويبكون على الشباب، فمن أهم الأمور التي تروع الإنسان وتشعره بالقلق رؤية الشيب يغزو رأسه؛ لأنه نذير بانتهاء مرحلة الشباب وتقدم العمر، وقديما قالوا: الشيب بريد الحِمام وتوأم الموت، (ابن قتيبة، 1986، ص349) فقد هال مشهدُ الشيب امرأ القيس فوصفه في شعره، وبث حزنه وشكواه مما حل به جرّاءه: (امرؤ القيس، 1990، ص265)

صَحا اليومَ قلبي عن لميسَ وأقْصَرا وجُنَّ بها ما جُنَّ ثُمَّتَ أبْصَرا

وذاكَ بأنَّ الشَّيبَ في الرَّأسِ راعَهُ وقالَ فَوَالِيهِ: ألا قد تَغيَّرا

فواعَجَبا ما قدْ عجبتُ من الفتى تبدِّلهُ الأيامُ والدّهرُ أعْصُرا

فإنْ يمسِ يومًا ذا شبابٍ فإنّها ستخلفهُ شيبًا وخَلْقًا مُحسَّرا

ولو خيَّرَ اللَّونَيْنِ أيُّهما لهُ لقالَ سوى هذا ولو كانَ أزْهَرا

لقد صحا قلب امرئ القيس من غفوته واستيقظ من سكره، وتوقف عن الصبوة بلميس بعدما جُنَّ بها زمنًا، فقد أبصر اليوم ما جعله يرعوي ويكفّ ويصاب بالهلع، إنه الشيب الذي ظهر في رأسه، وقول الفاليات له لقد تغيَّر لون رأسك! وينقله هذا الشعور إلى إحساس إنساني عام فيتحسر على الإنسان كيف تبدله الأيام وتغيّر حاله، وتخلفه شيبًا وجسمًا هزيلًا نحيلًا في الكبر بعد نضارة الشباب وفتوته وطاقته، وأمر الشيب هذا لا خيار له فيه، ولو كان الخيار له لفضل السواد على اللون الأبيض على الرّغم من وضوح اللون الأبيض واتقاده.

وكثيرا ما تتردد هذه المعاني وشبيهاتها في أشعار امرئ القيس، لتكشف عن حزنه على شبابه المنصرم، وشكواه من الشيب من خلال ما يعقده من مقارنات بين المرحلتين فالمقارنة تكشف الفارق الكبير بين ما يعيشه الشاعر في مرحلة الشيب، وبين ما كانت حياته عليه في مرحلة الشباب: (امرؤ القيس، 1990، ص330)

إنْ يكُ شيبي قدْ عَلاني وفاتني شبابي وأضحى باطلُ القولِ قدْ صحا وراجعتُ حِلْمي واكتهلتُ وثابَ لي فؤادي وَدُدْتُ النَّفْسَ عَن تَبَعِ الهَوَى

وأصبحتُ قدْ عنَّفتُ بالجهلِ أهلَه وودَّعتُ إخوانَ السفاهةِ والقِلى وطارَ غرابُ الغَيِّ عنِّي فلمْ يَعُدْ وأصْبَحْتُ كهلًا قاعدًا مِنْ أُولي النُّهَى وأبليتُ أثوابَ الشَّبابِ وحُسنَهُ وكلُّ جديدٍ سوفَ يدركُه البِلَى

يبدأ امرؤ القيس المقارنة من المرحلة التي يعيشها الآن؛ لأنها واقع يعيش لحظاته اليومية، وهي الأقرب إليه في هذه اللحظة، مرحلة الكهولة، واصفا مظاهرها وحياته فيها، فالشيب قد علا رأسه، وأنذره بانقضاء الشباب وتوليه، وصحا عن الباطل وركن إلى العقل والحلم، ومنع النفس عن اتباع الهوى، وازدرى الجهل والجاهلين والسفاهة والسفهاء، وذهب ضلال الشباب وجهله مع ذهاب اللون الأسود من شعره، وأصبح اليوم يجلس مع أهل العقل، وقد أبلى أثواب الشباب ولكن

لا عجب في ذلك، فإنّ كلّ جديد سيأتيه يومٌ ليصبح باليًا قديمًا، وإن كانت هذه صورة الحاضر الآن فإن صورة الحياة الماضية في الشباب تختلف تماما عنها، فقد أمضى أيامًا كثيرة في المتعة واللهو مع النساء الجميلات، وفي سباق الخيول على جواده النشيط السريع الذي يقوده فارس يجمع صفات الفروسية، فارس ماهر خبير متمكن لا طائش ولا متحذلق مدع، ولا ضعيف قديم السلاح. إلى جانب صفات أخرى كان يتصف بها كالكرم، والانتصار على فرسان الأعداء، والمروءة:

فيا ربَّ يومٍ ناعمٍ قدْ لهَوْتُهُ بمُرْتَجَّةِ الحاذَيْنِ ملتقَّةِ الحَشَى
وخيلٍ كأسرابِ القَطَا قدْ وزعتُها بذي مَيْعَةٍ ثَبْتِ الفؤادِ إذا جرَى
عليهِ فَتًى لا طائشٌ متحذلقٌ ولا واهنٌ رثُّ السِّلاح إذا غَدَا
فإن أمسِ كهلًا قدْ علتْني كَبْرَةٌ فقدْ كنتُ قبلَ اليومِ أهتزُّ للنَّدى
وقدْ كنتُ ممَّا أتركُ القِرْنَ ثاويًا وأعْطِفُ نحوَ المستغيثِ إذا دَعَا

ولذلك لا ينكر الشاعر جمال أيام الشباب وتمسك الإنسان بها وبذكراها الرائعة، بل يدعو ويرجو أن تبقى قريبة من ذاكرته ومخيلته وإن تولّى الشباب الحقيقي ومضى زمانه، كما يقدِّر حرقة الإنسان عندما يغادره شبابه، ولا يلوم الباكي والمتأسف عليه، بل على العكس تمامًا، إنه يعذره لذرف دموعه وإظهار حزنه؛ لأنَّ ضياع الشباب من المرء يستحق التأسف والبكاء:

وذلكَ مِنْ دهرٍ مضَى مِنْ شَبيبتِي فلا يبعدِ اللهُ الشَّبابَ إذا انقضَى
فلستُ لمَنْ يبكي الشَّبابَ بلائمٍ ولكنْ أراهُ بَيِّنَ العُذْرِ إنْ بَكى

وهكذا قد تكون العودة إلى الماضي أسلوبا ناجعًا في مواجهة الزمن الحاضر، والشعور باقتراب الموت مع مضي كل لحظة من لحظات الحياة، فنجد أن" الماضي كان واحة في صحراء الحزن والسأم يستظل به الشاعر فيرسم له صورة لا تضاهيها صورة أخرى" (الصائغ د.ت، ص251) ولا تغادر هذه الذكريات مخيلة الشاعر، وكأنها الملاذ الذي يأوي إليه هاربًا من ثقل اللحظة الحاضرة، وتتداعى صور الماضي أمامه وتتلاحق بشعره وكأنه يريد أن يمسك بها ويتشبث بكل لحظة مضت منها، يقول: امرؤ القيس، 1990، ص251)

أأدْكَرْتَ نَفْسَكَ مَا لَنْ يَعودا فَهَاجَ التّذكُّرُ قَلْباً عَمِيدَا
تذكّرتَ هنداً وأترابَها وأزمانَ كنتَ لها مُسْتَقِيدا
وأيامَ كنتَ بها مُعجبًا تطيعُ الغَوِيَّ وتَعْصِي الرَّشيدا
وتغدُو على الوحشِ تصطادُها وتروي النَّديمَ وتُصْبي الخَريدا
ويُعْجِبُكَ اللّهو والمُسْمِعَاتُ فأصبحتَ أزمعتَ منها صُدُودا
فإنْ يكُ دهرٌ أتى دونَه حوادثُ تنسي الحياءَ الجليدا
فقد كنتُ فيما مضى مُصْعَبَا أبيَّ الخِطام عزيزًا مريدا
ونادمْتُ قيصرَ في مُلْكِه فأوْجَهَنِي وَرَكبتُ البَريدا
إذا ما ازدحمْنِا على سِكَّةٍ سبقتُ الفُرانِقَ سَبقًا بَعيدا

وقدْ أتمنى فألقى المُنى وقدْ يصبحُ الليلُ عندي حَميدا

وألبسُ للحربِ أثوابَها وأركبُ لِلرَّوع طِرْفا عَتيدا

"الفرانق: البريد، فارسي معرَّب، (ابن منظور، 1414، فرنق)"

فالشاعر يذكر ما يهيج في نفسه من ذكريات، واللافت للنظر أنه في بوحه هذا يخاطب نفسه مجرِّدًا منه شخصًا آخر يحدثه ويعاتبه لأنه هيَّج الذكريات التي لا أمل بعودتها فتهيج في قلبه ويهيج معها الألم والحزن على ذلك الزمن الماضي ونعيمه الذي انقضى من اللهو والتسلية مع النساء ومنهن هند وصويحباتها، هند التي كان ينقاد الشاعر لها طواعية منساقًا وراء الغواية والجهل رافضًا صوت الرشد والعقل، إلى جانب اللهو بالصيد والطرب والغناء وشرب الخمر مع الندماء، ومما يلفت النظر استخدام الشاعر للأفعال المضارعة في إطار حديثه عن الماضي وذكرياته ك (تطيع، تعصي، تغدو، تصطاد، تروي، تصبي ...) فيشعرنا ذلك بالتجدد والاستمرار ويضفي على الماضي حيوية طاقة وحركة؛ وهذا لأن هذه الذكريات لا تنفصل عنه، فهي جزء مهم من شخصيته وحياته ومتصلة بخياله ووعيه ولا يمكن أن يمحوها النسيان، وكان إلى جانب ذلك كله رجلا شديدا قويا عزيزا صعب القياد له شخصيته المستقلة المتميزة، فقد نادم أشراف الناس وقادتهم كقيصر الروم الذي أكرمه ورفع شأنه بين الناس، وكان أيضًا فارسًا شجاعًا يركب الخيول الكريمة السريعة ويسبق الآخرين سبقًا مستحقًا، ويخوض المعارك والحروب مرتديًا أثواب الأبطال ولا يعجز عن تحقيق أمنياته التي يريدها وخاصة مواصلة النساء، ولكنه الآن انصرف عن ذلك كله وأزمع الإعراض عن هذه الأمور التي لا تليق بعمره.

وهكذا نرى الشاعر كلما اشتدت ظروفه وزادت همومه وانطفأت شمعة الحاضر وبدت قتامة المستقبل، يعود إلى الماضي، وتتداعى ذكرياته أمام ناظريه، وكأنها علاج ودواء ينتشله مما هو فيه، ويسكّن آلامه، ويعيد لنفسه الثقة والتوازن، فتغمره السعادة وهو يستعيد صوره الجميلة مرارا وتكرارا، وإن هذه الأشعار ومثيلاتها توضّح تحسّر الشاعر وأسفه الشديد أيضًا على الشباب وعلى أيامه التي ابتلعها الماضي، وما ذكره لها إلا تعويض لما فقده من متع الشباب ولذاته المختلفة، والشاعر لا يقصد السامع والمتلقي بقدر ما يقصد إلى الشكوى الداخلية ورثاء الشباب والنفس، وطلب المواساة ولكن هل من مواساة تجدي مع هذا الفقد! فلا حلّ له إلا التأسف والحزن عليه، ف "التأسف هو أيضا نوع من الحزن الذي له مرارة خاصة؛ لأنه يتصل دوما ببعض اليأس، وبذكرى اللذة التي أعطانا إياها التمتع إذ إننا لا نتأسف أبدا إلا على الخيرات التي تمتعنا بها والتي فقدناها بصورة لا تترك لنا أي أمل في استعادتها في الوقت المناسب، وفي النحو الذي أسفنا عليها من أجله" (ديكارت، 1993، ص122)

5- البثُّ والشكوى من المرأة:

كثيرًا ما يشكو امرؤ القيس تغيّر النساء عليه بعد أن داهمه الكبر وعلا رأسه الشيب، ويبين نتيجة خبرته الطويلة بالنساء أن المرأة عادة لا تحبُّ من قلَّ ماله، ومن كبر وغطى اللون الأبيض رأسه وتقوَّس ظهره: (امرؤ القيس، 1990، ص 106)

أرَاهُنّ لا يُحْبِبنَ مَن قلّ مَالُهُ وَلا مَنْ رَأينَ الشَّيبَ فيهِ وَقَوّسَا

ويشكو الشاعر من الطباع السيئة عند النساء، ومنهن دعد التي أخلفت عهدها وأعرضت عنه بعد زمن من المحبة والوصال، فيقول:(امرؤ القيس، 1990، ص230)

صرمتكَ بعدَ تواصلٍ دَعْدُ وبدا لدَعْدٍ بعضُ ما يبدُو
وزعمتِ أنِّي قدْ كبرتُ وإنّما تلكَ المكاذبُ ليسَ لها عَهْدُ
إنْ تَصْرِمي يا دَعْدُ أو تتبدلي غيري فليسَ لِمُخْلفٍ عَقْدُ
ولقدْ تواعِدُني الأوانسُ كالدُّمى بعدَ الهدوِّ فيلتقي الوَعْدُ
ولقدْ شهدتُ الخيلَ وهي كأنَّها بالدَّارعينَ نقانقٌ تَعْدُو
ولقدْ لهوتُ بكلِّ ذلكَ حِقْبَةً ولقد يُقِلُّ غَوَايتي الرُّشْدُ
للنَّاس أموالٌ تُرى ومعاشٌ مالٌ يبيدُ ومالِيَ الجمْدُ
المجدُ والإقدامُ أجمعُ والنَّدى أحمي العشيرةَ ذلكَ المجدُ

فقد فارقت دعد الشاعر وقطعته بعد الوصال، وهذا أكثر وأشد صعوبة وألمًا، على الرغم من أنه لم يصدر منه ما يوجب القطيعة، ولكنها (زعمت) أنه كبر ولم يعد قادرًا على مواصلة النساء، ويبذل الشاعر جهده هنا لينفي ذلك عنه، فزعمها كاذب، والزعم غالبًا ما يكون ادعاءً باطلًا، و"تلك المكاذب ليس لها عهد" وإن قطعته وهجرته واستبدلته برجل آخر فلا عجب في ذلك، فليس لمن يخلف وعوده وعهوده عقد يثبت عليه، وهو بذلك يؤكد أن العيب في المرأة وليس فيه، محاولًا من خلال ذلك التخفيف من إحساسه بوطأة الزمن عليه، وغزو الكبر له، وإلحاقه الضعف فيه، وتأثيره في حياته، وفي علاقته بالمرأة خاصة، وكي يتخلص الشاعر من هذا الموقف وهذا الشعور المؤلم في اللحظة الحالية التي يعيشها ويرى فيها عزوف المرأة عنه لتقدمه في العمر، يرتدُّ إلى الماضي ويرجع إلى صوره المشرقة مستحضرًا أيام شبابه مبتعثًا ما فيه من حيوية وقوة وطاقة، عندما كانت تواعده النساء الجميلات ليلًا ويستمتع بحديثهن ولقائهن ووصالهن، وقد ذكر (الأوانس) بصيغة الجمع ليخبرها أن المعجبات به واللواتي كنَّ يحببنه ويأنسن بقربه كثيرات، وهذا ليؤكد لها رغبة النساء به في شبابه المنصرم، وإن لم يَرُقْ لها الآن وقررت هجره والإعراض عنه، فقد كان موضع إعجاب الكثيرات من النسوة الجميلات اللواتي كن ينتظرن لقاءه ووصاله.

ثم إن تواصله مع المرأة ليس الذكرى الفريدة من ذكريات الشباب فقط بل كان فارسًا شجاعًا أيضًا يمتطي الخيل السريعة التي تشبه في عدوها وسرعتها النعام، فالخيل عند الشاعر من رموز الشباب أيضًا ولا تكاد تنبعث صورة من صور الماضي إلا ويذكرها كما يذكر المرأة وما هذا إلا لعلاقته القوية بهما، كما لا يخفى على أحد أن " العشق والفروسية من عناصر الشاعرية" (قناوي، 1949، ص138)

ويؤكد امرؤ القيس لدعد أنه عاش مستمتعًا لاهيًا بهذه الحياة (حقبة) والحقبة مدة من الدهر لا وقت محدد لها، (ابن منظور، 1414، حقب) فعبَّر بهذه المفردة عن شبابه الذي عاشه هكذا مدة طويلة من الزمن، ولكن العقل والرشد قد قلّل من غوايته الآن، وليس العجز والضعف والكبر كما تدَّعي دعد. هكذا يرد الشاعر على مزاعم دعد متحررًا من الزمن الحاضر ومن شعوره فيه بالضعف والعجز وتراجع القوى بالعودة إلى شبابه المتألق اليانع، موضحًا لها أن الرجولة في

حصول الإنسان على المجد في أمور أخرى يسعى فيها لا تبيد ولا تزول، وهي الشرف والمجد والإقدام والكرم والسخاء وحماية العشيرة.

وهذا الزعم الكاذب الذي يصدر من المرأة باتجاه الشاعر كان يستفزه كثيرًا ويثير غضبه وحفيظته، فيردُّ أحيانًا ردًّا قويًّا يكشف عن شدة تأثره بصدها وزعمها، فيكثف من أدلته ليبطل ادعاءها، كما في ردّه على بسباسة التي عيَّرته بكبره، وزعمت أنه لا يحسن اللهو مع النساء، فيقول: (امرؤ القيس، 1990، ص 28)

ألا زَعَمَتْ بَسْبَاسَةُ اليوْمَ أنّني كَبِرْتُ وَأنْ لا يُحسِنُ اللَّهوَ أمثالي

كذَبتِ لقد أصْبي على المَرْءِ عِرْسَهُ وَأمْنَعُ عِرْسي أنْ يُزَنَّ بها الخالي

وَيَا رُبّ يَوْمٍ قَد لهوْتُ وَلَيْلَةٍ بآنِسَةٍ كَأنّهَا خَطُّ تِمْثَالِ

يُضيءُ الفِرَاشَ وَجْهُهَا لِضَجِيعها كمِصْبَاحِ زَيْتٍ في قَناديلِ ذُبّالِ

فامرؤ القيس يؤكد أن زعم بسباسة باطل وادعاء كاذب، ويجيبها جوابا شديدا (كذبتِ) ولا يكتفي بهذا بل يرد على ادعائها الباطل الذي ادعته بأن النساء تحبّه وتعجب به إعجابًا عظيمًا حتى إنه قد ذهب بفؤادهن مع أنهن متزوجات ولهنَّ رجال، في حين تبقى زوجته مخلصة له لا يمتدُّ طرفها إلى غيره ولا تميل لأحد بوجوده، فلا يدع أحدا يصل إليها، وما هذا إلا ليؤكد عزَّته ومنعته وأنَّه كامل الرجولة، ويشهد لذلك أيضًا لهوه مع أجمل النساء، مع آنسة مكتملة الأنوثة كأنها صورة منقوشة متألقة لشدة حسنها وجمالها، وجهها يضيء ليل ضجيعها كما يضيء المصباح المنير.

وأمام هذا الهجر والإعراض من النساء، وفي غمرة الصراع النفسي الذي يعيشه الشاعر وهو يودِّع الشباب وحيوته وطاقته، وتغزو جسده أمارات الكبر وعلاماته يحاول امرؤ القيس أن يظهر نفسه بمظهر الرجل غير المبالي بالمرأة، وخاصة في حال تغيّرها عليه، فيواجهها بالأسلوب نفسه، ويخبرها أنه ليس عاجزا أمام تغيّرها وتبدلها بل إنه سوف يتغيّر هو أيضًا ويستبدلها بامرأة أخرى: (امرؤ القيس، 1990، ص61)

أأسماءُ أمسى ودُّها قدْ تغيّرا سنبدِلُ إن أبدلتِ بالودِّ آخرا

بل ربما يزعم أنه هو من تخلَّى عن النساء وعزف عن الصبا واللهو بإرادته؛ لأنه اكتفى منه في شبابه وحقَّق رغباته فيه، وها هو ذا يرد على لوم زوجته العاذلة ويجيبها على ما اتهمته به من الجهل والصبوة: (امرؤ القيس، 1990، ص320)

وعاذلةٍ بَكرَتْ غُدْوَةً تلومُ وتَزْعُمُ أنِّي صَبَوْتُ

وكنتُ امرأ مُعْرَمًا في الشَّبابِ أصِيدُ الغواني إذا ما اشتهيتُ

فأصبحَ قدْ بانَ منِّي السَّفاهُ وأبصرتُ أمْري ثمَّ ارعَوَيْتُ

فزوجة الشاعر بدأت بلومه واتهامه في الصباح الباكر، وهذا ما قد يكون سببًا في إزعاجه أكثر، وهو بدء نهاره معها باللوم والعتاب وتوجيه الاتهامات، ولكنه لم يرضخ لاتهاماتها ولم يكتف بالاستماع والصمت، وإنما أخبرها أن ما تتهمه به من صبوة في عمره هذا قد اكتفى منه في أيام الشباب، أيام الفتوة والقوة التي عاش فيها ما يشتهي من لحظات

الحب والغرام مع النساء الغانيات، وأما الآن فقد أبصر حقيقة عمره وتراجع عن ذلك وارعوى بإرادته وحكمته لا رغما عنه.

وهكذا تثير هؤلاء النسوة العاذلات سخط الشاعر، فيتحول غضبه إلى شعر يبث فيه شكواه منهن ويدحض ادعاءتهن وكذبهن ما استطاع إلى ذلك من سبيل، فلا بد لكل فعل من ردة فعل، وهذا انعكاس طبيعي للأذى الذي لحق به منهن، وهذه المشاعر والانفعالات مصدر مهم من مصادر الإبداع؛ فالشعر برأي إليزابيت درو ينبع من مصدرين: من جبرية غامضة في اللاوعي، ومن تنظيم صناعي تام الوعي. (ويس، 2017، ص88)

على أن بعض الدارسين المحدثين ذهبوا إلى أن إفراط امرئ القيس في ذكر النساء وعلاقته معهن سببه تعويض نقص نتيجة بغض النساء له لأسباب عدّة، وأنه يكذب ليغطي هذا النقص أمام الآخرين، وهي آراء لم تتجاوز التخمين. (طليمات والأشقر، 1992، ص241)

6- البثُّ الشكوى من البعد والفراق:

فرضت الطبيعة الصحراوية على حياة الإنسان الجاهلي قسوتها وشدتها؛ فعاش فيها يعاني ظروفًا صعبة، ويدافع فيها عن كيانه ووجوده الإنساني؛ فهي صحراء موحشة مخيفة، شحيحة الموارد، قليلة الماء والطعام، يمضيها البدو في التنقل من مكان لآخر بحثًا عن المرعى وموارد المياه، فإذا لم يحصلوا عليه حاربوا غيرهم للظفر به، حياة لا ينعمون فيها بلذة الاستقرار والأمان، وهذا حال أي فرد وأية قبيلة في ذلك العصر، أضف إلى ذلك أن شاعرنا كان ينتقل من مكان لآخر ومن قبيلة إلى أخرى باحثا عن الدَّعم والنُّصرة في سعيه لثأر أبيه؛ ولذلك نجده يشكو ألم البعد والفراق شكوى مؤلمة مضمخة بالشجن والحزن، تكشف عن مشاعر حقيقية وتجربة واقعية قاسية، ومن أهم المظاهر التي كانت تؤثر في الشاعر وتبعث في نفسه معاني البين ومرارة الفراق مشهد الأطلال وقد لاحت بقاياها له وهو يتنقل في الصحراء، وعلى الرغم من أنها خلت من أهلها وعفت ودرست آثارها ولم يبق منها إلا صور جامدة لا حياة فيها ولا روح، إلا أنها تثير عاطفة الشاعر ومشاعره، ويشتد انفعاله أمامها؛ وما ذلك إلا لأنها تختزن حياته في المكان مع أهله وأصدقائه وأحبته، فهذا الطلل كان عامرًا بالحياة والحركة والناس، قبل أن تأتيه عوادي الدهر وتهلكه، ولا تبقي منه إلا بعض الآثار والرسوم المترامية هنا وهناك فيأتي الشاعر ليرى ذلك المكان الذي عاش فيه ذات يوم وأحبه، وأمضى فيه أجمل اللحظات والذكريات، فيجده قد تهدَّم بفعل آلة الزمن واندثرت معالمه؛ فيقف متألمًا لما حلَّ به، حزينًا عليه، فينطلق لسانه بالبثِّ والشكوى والحرقة تملأ قلبه؛ لأن هذا المكان ليس مكانًا فحسب بل هو جزء من تاريخ الشاعر ومن روحه؛ وما استهلال كثير من الشعراء قصائدهم به إلا انعكاس لأثره العظيم في نفوسهم، وها هو ذا امرؤ القيس يقف على الأطلال فيداهمه البكاء لما تثيره تلك الأطلال من ذكريات الأحبة، فيطلب من أصدقائه أن يبكوا معه ويساندوه في بكائه على ذكراهم وعلى ما حلَّ في المكان بعد أن لعبت به يد الزمن، فلم يبقَ منه إلا بعض العلامات والرسوم والآثار الدارسة التي ظهرت في الديار كأنها خط صغير قديم مرسوم في صحف الرهبان: (امرؤ القيس، 1990، ص89)

قِفا نَبكِ من ذكرَى حَبيبٍ وَعِرْفان وَرَسْمٍ عَفتْ آياتُه مُنذُ أزْمَان

أتَتْ حِجَجٌ بَعدي عَليها فأصْبَحَتْ كَخَطِّ زَبُورٍ في مصَاحِفِ رُهبَان

وتتداعى ذكريات المكان إلى مخيلة الشاعر فيذكر اجتماع الحي فيه؛ فيزيد حزنه وسقمه وشجنه الذي عادة ما يخفيه ويداريه، ولكنه لم يستطع ذلك الآن أمام مشهد الديار التي كانوا يقيمون فيها، فسالت دموعه غزيرة كما يسحُّ المطر، وانسكبت كما ينسكب الماء من رقع المزادة الممتلئة حتى ملأ الدمع رداءه:

ذكَرْتُ بها الحَيَّ الجَميعَ فَهَيَّجَتْ　　　عَقَابيلَ سُقْمٍ مِنْ ضَميرٍ وأَشْجَانِ

فَسَحّتْ دُموعي في الرِّداءِ كأنّهَا　　　كُلىً من شَعِيبٍ ذاتِ سَحٍّ وَتَهْتانِ

وكثيرا ما يثير مشهد الأطلال الخالية من أهلها ذكريات يوم الرحيل، فتمثل أمام ناظري الشاعر، ويتذكر مشهد الفراق المؤثر، ذلك المشهد الذي حفر عميقًا في وجدان الإنسان الجاهلي، المشهد الذي يختزل اللحظات الأخيرة لوداع الأحبة، ويختزل معاناة الحياة الجاهلية والقلق والاضطراب والحيرة التي فُرضت على الجاهلي وجعلته يعيش في ترقب دائم متوقعًا الفراق والرحيل في أية لحظة: (امرؤ القيس، 1990، ص114)

عُوجَا عَلى الطَّلَلِ المُحيلِ لأنّنَا　　　نَبْكي الدّيارَ كما بكى ابنُ خِذامِ

أوَ مَا تَرَى أظعَانَهنّ بَوَاكِراً　　　كالنّخلِ من شَوْكانَ حينَ صِرَامِ

حُوراً تُعَلَّلُ بالعَبِيرِ جُلُودُهَا　　　بيضَ الوُجُوهِ نَوَاعِمَ الأجْسَامِ

فَظَلِلْتُ في دِمَنِ الدّيَارِ كَأنّني　　　نَشْوَانُ باكَرَهُ صَبُوحُ مُدَامِ

فامرؤ القيس يعلمنا هنا أنه ليس الباكي الأول على الأطلال، فقد سبقه إلى ذلك ابن خذام؛ فما تثيره الأطلال وما تهيجه من مشاعر الحزن والألم أمر مشترك بينه وبين غيره من الشعراء؛ فقسوة الحياة البدوية التي يعيشونها جعلت منهم شركاء في المعاناة الإنسانية، وفي الضعف والانكسار أمام جبروت الطبيعة وتحكّمها في الإنسان، والتعرض لقسوتها وما يعترضهم من متاعب وهموم وأزمات جرَّاءها. ولعلَّ تقليد الوقوف على الأطلال عند الشعراء في مطالع قصائدهم أكبر دليل على ذلك. ثم إن الطلل يرجع بذاكرة الشاعر إلى مشهد ارتحال الظعائن بكرة وقد ارتفعت هوادجهن واختلفت ألوانهن كأنها النخل الذي حان صرامه، وقد حملت تلك الهوادج داخلها النسوة الجميلات الناعمات المتعلّلات بالروائح الطيبة، وقد أقام الشاعر في الديار حزينا أسفا تملؤه الحيرة، حتى شبه نفسه بالنشوان من ذلك؛ فالشاعر مذهول يكاد لا يصدق رحيل هؤلاء الأحبة وخلو الديار منهم، وإن استرجاع مشهد الرحيل هذا يؤكد أثر البعد والفراق في نفس الشاعر، وحنينه إلى ماضي الديار وهي عامرة بأهلها قبل أن يشتتهم البعد ويمزقهم الفراق، ولولا هذا البين والبعد ما انبعثت هذه الأحاسيس في نفسه، ولكنها عندما تتحول إلى ذكريات لا سبيل للرجوع إليها نشعر بقيمتها ومكانتها في حياتنا فإن "الحالات العاطفية لا تتحقق في نفوسنا كل التحقق ولا نعيشها تماما إلا حين تسقط في لجَّة الماضي، وتصبح ذكريات ماضية" (حسن، 1968، ص115)

ولذلك لا يفتأ يذكر ذكرياته مع محبوباته أمام الطلل الذي ما إن يبصره حتى تنبعث صور الذكريات في مخيلته، فيشكو بعدهنَّ وفراقهنَّ، ويتذكر الليالي الجميلة بقربهنَّ، عندما كان يتبادل الحبَّ معهنَّ ونظرات الإعجاب به تظهر في عيونهنَّ: (امرؤ القيس، 1990، ص85)

لِمَنْ طَلَلٌ أبْصَرتُهُ فَشَجَاني　　　كَخَطِّ زَبُورٍ في عَسِيبِ يَمَانِ

دِيَارٌ لِهِنْدٍ وَالرَّبَابِ وَفَرْتَنِي لَيَالِيَنَا بِالنَّعْفِ مِنْ بَدَلانِ

لَيَالِيَ يَدْعُونِي الهَوَى فَأُجِيبُهُ وَأَعْيُنُ مَنْ أَهْوَى إِلَيّ رَوَانِ

إنَّ امرأ القيس مع ألمه من البعد والفراق يحرص كلّ الحرص على المحافظة على هذه الصور لتبقى حية في الذاكرة والوجدان، ويحرص كغيره من الشعراء الجاهليين أن يخلّدها في شعره، وكأن الشاعر الجاهلي "كان يحرص على نقل هذه الصور إلى قصائده ليبقي على صورها، ويحافظ على جوهرها، ولهذا كانت قصائده ومقطعاته وثائق دقيقة لحياته بكل ما تضمه هذه الحياة من جوانب وما تحفل به من مشاهد" (القيسي، 1970، ص239) ومما لا شك فيه أن إبداع الشاعر في تصوير الأطلال الدارسة وماضي المكان وذكرياته مع الأهل والأحبة، وارتحال الأحبة عنه، إبداع باعثه نفسي، فالشاعر متألم حزين أمام قسوة الصحراء وعجزه أمامها، ويعيش حالة من القلق الوجودي الذي جعله غير مطمئن بشأن مصيره في الأيام القادمة، فالمستقبل أمامه مجهول لا يأمن فيه غدر هذه الصحراء ومخاطرها، وما يمكن أن تفقده إياه مستقبلا " وإنَّ الإحساسات قد تثير فينا مشاعر بأشياء ماضية بعيدة في الزمن، ولكنها قد تكون سببا لمشاعر مستقبلة أيضا" (حسن، 1986، ص109).

ثالثا_ الانعكاسات النفسية للبثِّ والشكوى في شعر امرئ القيس:

1- الحزن والقلق: من خلال وقوفنا على اتجاهات البث والشكوى في شعر امرئ القيس، كثيرا ما نجد الشاعر يعبِّر صراحة وبشكل مباشر عن حزنه وألمه، فتكثر الألفاظ المعبرة الدَّالة على ذلك في شعره، من مثل قوله: (امرؤ القيس، 1990، ص216)

مَنْ هنا لي مِنْ صديقٍ فليعُدْ لِيَعُدْني إنَّني اليومَ كَمِدْ

مِنْ خُطوبٍ تركثني قلقًا قلقَ المِحْوَرِ بالكَتِّ المَسَدْ

بيَّتتني بهمومٍ شُرَّع خلستْ نومي وأحذثني السُّهُد

"المحور: العود الذي فلك البكرة، الكتّ: الصوت، المسد: الحبل"

فنلاحظ أن مفردات الحزن تهزُّ نفسه وتشجي شعره (كمد، قلقا، هموم، السهد) كلها ألفاظ تبين الحزن والقلق المسيطر على حياة الشاعر.

ويصل الأمر أحيانا بالشاعر إلى البكاء الذي يداهمه من شدة الغيظ والألم الذي يعيشه ويخنقه فلا يجد أمامه إلا الدموع يذرفها، بل يضج الشاعر بحزنه وألمه وتضيق عنه نفسه حتى يكره حياته ويعزف عنها، ويدعو على نفسه بالموت؛ يقول: (امرؤ القيس، 1990، ص357)

لقدْ دمعتْ عينايَ في القَرِّ والقَيْظِ وهلْ تدمَعُ العينانِ إلَّا مِنَ الغيظِ

فلمّا رأيت الشّرَّ ليسَ ببارحٍ دعوتُ لِنفسي عندَ ذلكَ بالفيْظِ

ولا تخفى علينا الأبيات المشهورة لامرئ القيس في معلقته التي انتزعت إعجاب الكثيرين من الدارسين والنقاد، والتي يشكو فيها طول ليله المثقل بأنواع الهموم: (امرؤ القيس، 1990، ص18)

وَلَيلٍ كَمَوْجِ البَحرِ أرْخَى سُدولَهُ عليّ بأنواعِ الهُمومِ لِيَبْتَلي

فَقُلْتُ لَه لمَّا تَمَطَّى بصُلْبِهِ وَأَرْدَفَ أَعْجَازًا وَنَاءَ بِكَلْكَلِ

ألا أيُّها اللّيلُ الطويلُ ألا انْجَلِي بصُبْحٍ وما الإصْبَاحُ مِنكَ بأمثَلِ
فيا لكَ من لَيْلٍ كَأنَّ نُجومَهُ بِكُلِّ مُغَارِ الفَتْلِ شُدّتْ بِيَذْبُلِ
كأنَّ الثُّريَّا عُلِّقتْ في مَصَامِها بأمراسِ كتّانٍ إلى صُمِّ جَندَلِ

فالقارىء لهذه الأبيات يدرك من الوهلة الأولى ثقل هموم الشاعر وشدة وطأتها عليه، وعمق عاطفته، وصدق معاناته، من خلال أسلوبه في وصف الليل وطوله، وجمال تصويره وقوة تأثيره، وإنْ ذكر كلمة (ليل) مفردة لكنَّه يصف ليالي كثيرة طويلة مرت عليه وهو يقاسي أهوالها، وقد دلّنا على ذلك واو رب التي تفيد التكثير هنا، فليله هذا والليالي العديدة التي تشبهه ممتد طويل، ظلمته شديدة، يشبه في طوله وعتمته أمواج البحر المتلاطمة العالية المندفعة الممتدة، وقد أثار بظلمته وعتمته وطوله كوامن الأحزان، وذكّر الشاعر بأنواع الهموم، فهمه ليس واحدا، فقد الأب وفقد أشراف القبيلة، وضياع الملك، وخسارة الأصحاب وانصرافهم عنه، ومعركته المصيرية في استرجاع حقه والثأر لأبيه في مجتمع لا يرحم المقصّر ولا يعترف إلا بالقوي.

هموم ثقيلة جسيمة أثارها هذا الليل ليختبر صبر الشاعر وقوة تحمله للمصائب والنوائب.. ويستمر في طوله بل يفرط فيه ويأبى المغادرة، حتى يشعر به امرؤ القيس كأنه جمل تمطى بصلبه وأردف بأعجازه وازدادت مآخيره امتدادا وتطاولا، وابتعدت أوائله، منبئا بمزيد من الشدائد والهموم والسهر الكئيب، وهنا يناديه الشاعر بادئا بأداة التنبيه (ألا) كي يسمع نداءه ويرجوه كي ينصرف ويزول وتنجلي عتمته كي يشرق الصباح، لعل إشراقته تذهب بهذه الشدائد معها، لكنَّ الشاعر يعود ويتذكر أن همومه عظيمة؛ ولذلك تساوى عنده الصباح والمساء، وصباحه لن يكون أفضل من ليله، فشاعرنا مهموم دائما وحياته كلها مثقلة بالآلام والمتاعب؛ ولذلك يشعر بثقل الوقت وبطئه، حتى ظنَّ الشاعر أن نجوم الليل شدت بحبال متينة إلى جبل يذبل الضخم أو أنها ثُبتت بأمراس من الكتان القوي إلى صخور قاسية تمنع تحركه وانزياحه.. هذه الصور الفنية الرائعة التي جاد بها خيال الشاعر الخصب تؤكد عمق معاناة امرئ القيس وثقل همومه وكثرتها وشدة حزنه، فعندما يصاب المرء بالحزن والهم يشعر بثقل الزمن وطول الوقت، ويرى اللحظات بطيئة لا تزول، ولا يمكننا إلا أن نشعر هنا بصدق عاطفته وإحساسه؛ لأنها نابعة من معاناة شخصية حقيقية "وكلما كانت الشكوى بصاحبها ألصق كان التعبير عنها أعمق؛ ولذلك كانت العواطف المتفجرة من الشكاوى الشخصية أشد العواطف حرارة، وأحدّها لذعا، وأقدرها على التأثير" (طليمات والأشقر، 2008، ص590)

2- **الضعف والانكسار:** لعلَّ أكثر ما يظهر الضعف والانكسار عند امرئ القيس عندما يذكر إعراض المرأة عنه مما سبق ذكره في شكواه التي بثها مرارا من هجر المرأة له ونشوز الزوجة، فليس بيده حيلة أمام ملل زوجته منه وضجرها منه وإعراضها عنه بعد تقدم عمره، سوى الشكوى التي تعبر أصدق تعبير عن ضيقه وامتعاضه: (امرؤ القيس، 1990، ص262)

طالَ الزَّمانُ وملَّني أهلِي وشكوتُ هذا البينَ من جُمْلِ
همٌّ إذا ما بتُّ أرَّقني وإذا انتبهتُ فأنتمُ شغلي
وتقول جملُ قد كبرتَ وشقَّك ال حدثانُ يا بنَ الخيرِ بالأزْلِ

فالزمان قد طال على الشاعر وثقله يزداد عليه يومًا بعد يوم، وهو يشعر بانكساره وضعفه أمامه، فقد ملَّ أهله منه، وأعرضت عنه زوجته، والهموم تغزوه وتساوره وتؤرقه ليلا، ورعاية أسرته والاهتمام بشؤونهم يشغله نهارا، فلا يعرف الراحة في أي وقت، وزوجته تؤكد له ظهور علامات الكبر في ضعف جسده وتداعي قوته؛ ولذلك فإن من أكثر الأمور التي حزّت في نفسه وأثرت في إحساسه هذا التبدل الذي يطرأ على الإنسان، وكيف تخلفه الأيام شيبا وضعفا وبوارا بعد الشباب والقوة: (امرؤ القيس، 1990، ص265)

فواعَجَبا ما قد عجبتُ من الفتى تبدِّلهُ الأيامُ والدّهرُ أعْصُرا

فإن يمسِ يوما ذا شبابٍ فإنَّها ستخلفهُ شيبا وخَلْقا مُحسَّرا

3- اليأس وفقدان الأمل: إنَّ الهموم التي أثقلت حياة الشاعر، وسعيه وراء هدفه دون أن يصل إلى قصده ومبتغاه جعله شيئا فشيئا يفقد الأمل، وأخذ اليأس يتسلل إلى نفسه ويسيطر عليها، ويظهر هذا في كثير من شكواه التي بثها من مصائب الدهر وصروفه، فلم يعد عنده أدنى أمل في الانتصار عليه ويستحيل الصمود أمام نوائبه، وهذا واضح في قوله: (امرؤ القيس، 1990، 309)

أبَعْدَ شَنوءَةَ الأبطالِ أرجو لَيَانَ العيشِ أو أبغِي احتيالا

فإنْ تكُ دارُ آلِ الأزْدِ زالتْ فكلُّ النَّاسِ ينتظرُ الزَّوالا

ويظهر هذا في قوله أيضًا: (امرؤ القيس، 1990، ص217)

بَيْنَمَا المَرْءُ شِهَابٌ ثاقِبٌ ضَرَبَ الدَّهْرُ سَنَاهُ فَخَمَدْ

يخدعُ الجَلْدَ ويُودِي جَهْرَةً ويقودُ الموتَ لِلْحَيْنِ الأسدْ

فصوت اليأس والاستسلام واضح، ولعل لفظة (خمد) توحي بالجمود والركون إليهما، وكذلك عبارة (ويقود الموت للحين الأسد) فالأسد على قوته يأخذه الموت، وصورة الإنسان وهو شهاب ساطع متألق، ثم يفجعه الدهر ويذهب بنوره وألقه وكل ما بناه توضح اليأس المهيمن على الشاعر، وإن كان قد قاوم هذا اليأس كما نعلم إلى نهاية حياته وهو يسعى جادًّا وراء أهدافه.

4- **النزعة الإنسانية:** إن شعر الشكوى الذي كان يبثه امرؤ القيس ويبوح فيه عن همومه وآلامه وعذاباته ومرضه جعله يشعر بهموم الناس ومعاناتهم، وجعله يتحرر من قيود النفس والأنانية وينطلق في آفاق الإنسانية والتعاطف البشري، فيشعر بمشاعر الناس ويتألم لمصابهم، فقد جعله يذكر تلك اللحظات التي فرج فيها عن المكروبين ليخفف عنهم معاناتهم، وها هو ذا عندما اشتد مرضه في أيام حياته الأخيرة وقد حمله أصدقاؤه على مراكبهم وثيابه تضطرب على جسده وكأنها كفن له، يتذكر تفريجه عن المكروب وإنقاذه له بتخليصه من أيدي أعدائه، وفكه للأسير بفدائه بماله حتى إن الأسير يتمنى أن يفديه بنفسه وما يملك اعترافا بجميله وفضله: (مرؤ القيس، 1990، ص90)

فإمَّا تَرَيْني في رحالةِ جَابرٍ على حَرَجٍ كالقَرِّ تخْفِقُ أكْفاني

فيا رُبَّ كروبٍ كررْتُ وراءَه وعانٍ فكَكْتُ الغُلَّ عنهُ ففدَّاني

كما نلمس في شعر الشكوى إحساس الشاعر بالقلق الإنساني، فقد ذكر الحزن الذي أصاب صاحبه عندما أصابه القلق وأخذه البكاء خشية الموت في بلاد الغربة، فحاول أن يخفف عنه، فقال له شادًّا من عزمه، مبينًا له شرف ما يسعيان إليه: (امرؤ القيس، 1990، ص65)

بَكى صَاحِبي لمّا رأى الدَّرْبَ دُونه وأيقنَ أنَّا لاحِقَانِ بقَيْصَرَا

فَقُلتُ لهُ: لا تَبْكِ عَيْنُكَ إنّمَا نحاولُ مُلْكاً أوْ نموتَ فَنُعْذَرَا

كما شعر بمشاعر الأم عندما يفارقها فلذة كبدها، فصور حزن أم صديقه (عمرو بن قميئة) الذي رافقه في سفره إلى القيصر، ووصف دموعها التي ذرفتها على فراق ابنها، وأحس بحرقة صديقه لفراق أمه: (امرؤ القيس، 1990، ص69)

أرى أمَّ عمرٍو دَمْعُهَا قد تحدّرَا بُكَاءً على عَمرٍو، وَمَا كان أصْبَرَا

ونجد مثل هذا الشعور أيضا في حديثه مع المرأة المتوفاة في جبل عسيب وهو واقف على قبرها فقد شعر بالمعاناة الإنسانية المشتركة في غربة الإنسان الحقيقية الأزلية في قبره تحت التراب حيث لا قريب ولا صديق ولا أحد يؤنسه: (امرؤ القيس، 1990، ص357)

وليْسَ غريباً مَن تَناءتْ ديارُهُ ولكنَّ مَنْ وارى التُّرابُ غَريبُ

وكثيرا ما نجده يتأمل في حياة الإنسان عامة ويشعر بضعفه ومعاناته، ويذكر مصيره المحتوم نحو الموت، وكيف يلهو في حياته بالطعام والشراب وينخدع بهما ولكنه يسرع نحو موته وأجله وقد غيب عنه وقت انقضائه (امرؤ القيس، 1990، ص97)

أرانا مُوضعِينَ لأمر غَيْبٍ وَنُسْحَرُ بالطَّعام، وَبالشَّرابِ

وهكذا خرجت الشكوى عند امرئ القيس من نطاقها الضيق، وانصرفت عن الأثرة الشخصية، فإذا بالشاعر" ينطق بلسان كلّ إنسان، ويبوح بما في كل روح، حينئذ يتحول من شاعر ذاتي أو قبلي إلى شاعر إنساني" (طليمات والأشقر، 2008، ص566) وإلى حكيم متأمل في المعاناة الإنسانية عامّة.

الخاتمة:

ونجمل في النهاية أبرز نتائج البحث، ومن أهمها:

- أنّ موضوع البثّ والشكوى كان من أهم الموضوعات التي جاءت في شعر امرئ القيس، وغالبًا ما كان يأتي ضمن القصائد مع الموضوعات الشعرية الأخرى، وإن وردت بعض المقطعات القليلة التي شكا فيها مرضه وعلّته.
- وأنّ مضامين شعر البثّ والشكوى قد تنوعت عند الشاعر تنوع مواقف حياته المختلفة وظروفها القاسية التي سببت له المعاناة ودفعته للشكوى.
- وأن البث والشكوى عند امرئ القيس بشكل عام كانت إما نتيجة معاناة نفسية أو نتيجة مرض جسدي شديد، وقد تآزرت أبياته لتشمل الأمرين معًا، وكثيرا ما يأتيان مجتمعين فلا نستطيع الفصل بينهما لصلتهما الوثيقة ببعضهما، فالإنسان روح وجسد يكملان بعضهما.

- لقد اختزن شعر الشكوى وجوهًا مهمة وأحداثا كثيرة في حياة الشاعر، وكشف عن ألمه ومعاناته وصلابته أمام المواقف الشديدة ومحاولات تماسكه أمام نوائب الدهر ومصائبه التي تتالت عليه، كما كشف لنا جوانب مهمة من حياة الشاعر في الماضي رجع إليها بفضل الشكوى التي كانت تثير صوره، وتعمل على تتداعي الذكريات عنده فأعطانا صورة واضحة شاملة عن ماضيه وحياته فيه.
- كان لشعر البث والشكوى في شعر امرئ القيس انعكاسات نفسية تجلَّت في سيطرة مشاعر الحزن والقلق والإحساس بالضعف والانكسار، واليأس وفقدان الأمل، والعيش في إطار الماضي للسيطرة على انتكاسات الحاضر وآلامه، والنزعة الإنسانية التي بدت في شعور الشاعر بمعاناة الإنسان عامة.
- شعر الشكوى عند امرئ القيس أنموذج للشعر الذي يتسم بصدق العاطفة وعمقها غالبا، وهو شعر يتأبى على الادعاء والنفاق؛ فقد صدر عن تجارب واقعية ومعاناة حقيقية، وهذا ما عزَّز من قيمته الإنسانية وتأثيره في النفوس، فبقي خالدا مؤثِّرًا على مرِّ الزمان.

Abstract

Complaining and Grief in Imru’ al-Qays’ Poetry

An Analytical Psychological Study

By Shams el Eslam Ahmed Halo

This research aims to study the motives for grief and complaining according to Imru’ al-Qays’ poetry and their trends in his poetry, and to clarify the prominent meanings and contents revealed by the poet’s poetry of complaint, the psychological reflections of this poetry and its most important emotions and feelings.

To achieve the research objectives, the study is divided into two parts: The first section includes theoretical material; it defines the concept of grief and complaining, then clarifies the motives for grief and complaining in the poetry of Imru’ al-Qays. The second section talks about their trends in his poetry and analyzes poetic texts to reveal the poet’s suffering and how he revealed its depth in himself and his conscience. It also explains the psychological repercussions of this poetry.

The research concludes that Imru' al-Qais's complaint was generally the result of either psychological suffering or severe physical illness. The subject of complaint in his poetry had psychological repercussions that appeared, for example, in the dominance of feelings of sadness and anxiety, a feeling of weakness and brokenness, despair, and living in memories of the past.

That's why this poetry was an honest mirror that reflected the poet’s suffering in various stages in his life and called him to sadness, complaint and revelation in these poems. They preserved an important aspect of his life and expressed sincere human feelings that made him go beyond individual subjectivity to express human conscience in general.

Key words: Imru' al-Qais, poetry, grief, complaint.

مصادر البحث ومراجعه:

1. الأزهري، م. (2001م) تهذيب اللغة، تحقيق محمد عوض مرعب، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
2. امرؤ القيس، (1990م) ديوان امرئ القيس الكندي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط5، دار المعارف، مصر.
3. البغدادي، ع. (1997م) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط4، مكتبة الخانجي، القاهرة.
4. الجوهري، إ. (1987م) تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، ط4، دار العلم للملايين، بيروت، مادة (بثث).
5. حسن، ع. (1968) شعر الوقوف على الأطلال من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث، مطبعة الترقي، دمشق.
6. حمودة، م. (2022) تجليات المعادل الموضوعي في التراث العربي، بحث في مجلة جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية بإيتاي البارود، المجلد 35، العدد 1، أكتوبر.
7. الحميدي، م. (1995م) تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم، تحقيق زبيدة محمد سعيد عبد العزيز، ط1، مكتبة السنة، القاهرة.
8. الحميري، ن. (1999) شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، تحقيق حسين العمري وآخرون، ط1، دار الفكر المعاصر، بيروت، ودار الفكر، سورية.
9. أبو حيان الأندلسي، م. (1983) تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب، تحقيق سمير المجذوب، ط1، المكتب الإسلامي، بيروت.
10. الدروبي، س. (د.ت) علم النفس والأدب، ط2، دار المعارف، مصر.

11. ديكارت، ر. (1993م) انفعالات النفس، ترجمة وتقديم وتعليق جورج زيناتي، ط1، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت.
12. ابن رشيق القيرواني، ح. (1981) العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط5، دار الجيل، بيروت.
13. الزبيدي، م. (2001) تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق جماعة من المتخصصين، ط1، وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت.
14. زيتوني، ع. (2001) الإنسان في الشعر الجاهلي، ط1، مركز زايد للتراث والتاريخ، الإمارا ت العربية المتحدة.
15. السكاكي، ي. (1987م) مفتاح العلوم، تحقيق نعيم زرزور، ط2، دار الكتب العلمية، لبنان.
16. ابن سلّام الجمحي، م. (د. ت) طبقات فحول لشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المعارف، مصر.
17. ابن سيده، ع. (1996) المخصص، تحقيق خليل إبراهيم جفال، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
18. السيوطي، ع. (1966) شرح شواهد المغني، تعليق أحمد ظافر كوجان، دون طبعة، لجنة التراث العربي.
19. الشنتمري، ي. (1954م) أشعار الشعراء الستة الجاهليين، اختيارات من الشعر الجاهلي، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، ط1، المطبعة المنيرية بالأزهر، مصر.
20. الصائغ، ع. (د.ت) الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام، عصمى للنشر والتوزيع، القاهرة.
21. الصاحب بن عباد، إ. (1994) المحيط في اللغة، تحقيق محمد حسن آل ياسين، ط1، عالم الكتب، بيروت.
22. ابن أبي الإصبع، ع. (1963م) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تحقيق حفني محمد شرف، لجنة إحياء التراث الإسلامي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، الجمهورية العربية المتحدة.
23. طرفة بن العبد، (2002م) ديوان طرفة بن العبد، تحقيق مهدي محمد ناصر الدين، ط3، دار الكتب العلمية.
24. طليمات، غ والأشقر، ع. (1992) الأدب الجاهلي، ط1، دار الإرشاد، حمص، سورية.
25. طليمات، غ والأشقر، ع. (2008) الشعر في العصر الأموي، دار الفكر، دمشق.
26. عجابي، أ. (2019) الاضطرابات الانفعالية، مقاربة معرفية سلوكية، مجلة أبجديات سيكولوجية، المجلد 1، العدد1، إبريل.
27. العسكري، ح. (1952م) الصناعتين، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، مصر.
28. العسكري، ح. (د.ت) معجم الفروق اللغوية، تحقيق محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة، القاهرة.
29. علي، ج. (2001م) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط4، دار الساقي، بيروت.
30. ابن فارس، أ. (1986م) مجمل اللغة، تحقيق زهير عبد المحسن سلطان، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت.
31. قاسم، م وديب، م. (2003) علوم البلاغة، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، لبنان، ط1.
32. ابن قتيبة، ع. (1423ه) الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة.
33. ابن قتيبة، ع. (1986) عيون الأخبار، تحقيق يوسف علي الطويل، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت.
34. قناوي، ع. (1949م) الوصف في الشعر العربي، ط1، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.
35. القيسي، ح. (1970) الطبيعة في الشعر الجاهلي، ط1، دار الإرشاد، بيروت.
36. الكرماني، م. (1424ه) تحقيق الفوائد الغياثية، تحقيق علي بن دخيل الله العوفي، ط1/ مكتبة العلوم والحكم، السعودية.
37. مكي، ط. (1974م) امرؤ القيس حياته وشعره، ط3، دار المعارف، القاهرة.
38. ابن منظور، م. (1414ه) لسان العرب، ط3، دار صادر– بيروت.
39. ابن منقذ، أ. (1965) المنازل والديار، ط1، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، لبنان.
40. أبو موسى، م. (1996م) خصائص التراكيب، دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، ط4، مكتبة وهبة، مصر.
41. النيسابوري، ع. (1430ه) أصل تحقيقه رسالة دكتوراه بجامعة الإمام محمد بن سعود، ثم قامت لجنة علمية من الجامعة بسبكه وتنسيقه، ط1، عمادة البحث العلمي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
42. ويس، أ. (2017م) ثنائية الشعر والنثر في الفكر النقدي، ط1، كنوز المعرفة، عمّان.
43. وليك، ر، آرن، آ. (1992) نظرية الأدب، تعريب عادل سلامة، دار المريخ، السعودية.

المراجع الإلكترونية:

أبو خيران، غ. (2019) بحث بعنوان "سيكيولوجية الشكوى والتذمر" نشر بتاريخ 2019/3/19 Noonpost.com تاريخ الاطلاع 2023/2/25م.